جمعية الدعوة الإسلامية العالمية
كلية الدعوة الإسلامية

مجلة كليّة الدعوة الإسلامية

مجلّة - إسلاميّة - ثقافيّة - جامعة - محكّمة

تَصْدُرُ سَنَوِيًّا عَنْ

كُلِّيَّةِ الدَّعْوَةِ الإِسْلَامِيَّةِ

العدد الخامس والثلاثون

لسنة 1443 هجرية الموافق: 2021 ميلادية

صور من بلاغة الإيجاز والإطناب القرآني في مخاطبة المؤمنين والكافرين

د. محمد علي سَليم البَحْباح
كلية الآداب - جامعة طرابلس

مقدمة:

تتعدد مناحي الجمال في النسق القرآني ويظهر حسن اختياراته في تنوع صور وأساليب الخطاب الموجه إلى المُخَاطبِين به مراعاة لأحوالهم، وهذا التنوع الرائق والتفنن في الأساليب يقدم صورًا حية للمخاطبين به ومعالجات نفسية واجتماعية في كيفية مخاطبة أحوال الناس وطرق تفكيرهم، ومن أبرز ملامح هذا الأسلوب، صور الإيجاز والإطناب التي هي من أهم دلائل الإعجاز في كلام الله تعالى.

وقد رُمْتُ في هذا العمل أن أعرض لبعض هذه الصور من خلال خطاب القرآن الكريم للمؤمنين والكافرين، وبيان بعض مما يتسم به هذا الخطاب من جماليات وبدائع وفرائد بلاغية.

إن المتتبع لأسلوب الإيجاز في كتاب الله يجد الأسلوب المشوق عند مخاطبة الله تعالى للمؤمنين وبيان أحوالهم، فيخاطبهم هنا بمعان كثيرة وألفاظ قليلة، مع الرِقَّة واللينِ التي تبين صور التشويق فيما أعدَّه الله للمتقين من نِعَمٍ وخيراتٍ يوم القيامة، كما نرى الإيجاز القرآني الموجه إلى الكافرين والمنافقين، مقترنًا بالشدة

في اللهجة والقِصَر في الفِقَرِ والآيات.

أما أسلوب الإطناب في كتاب الله العزيز الموجه للمؤمنين، فنجده يخاطبهم به لفائدة إيمانية تحبها النفس وترغبها ولا تَمَلُّ منها؛ لحاجتهم إليها، وبخاصة في آيات التشريع وأحكامها؛ توضيحًا لها وبيانًا لتفاصيلها، ولإظهار أثرها في النفوس، ونجد ذلك الإطناب كذلك في القصص القرآني الماتع؛ لأخذ العبرة من قصص الأمم السابقة، وتقوية لإيمان المؤمنين، واستخلاص العبر منها، كما نجد هذا الإطناب عند الوعد بالجنة في وصفها وبيان صور نعيمها؛ ترغيبًا للمؤمنين فيها وتحبيبًا لهم فيما أعده الله للمؤمنين وغيرها من الأسرار القرآنية في هذا الخطاب القرآني.

أما الإطناب في خطاب الكافرين فنراه في وصف النار وأهوالها بما يتناسب معهم، بذكر وعيد الله لهم بتلك النار، وما فيها من أهوالٍ، وبيان لصور العذاب وآلامه التي توضح سوء الحال والمآل.

إن خطاب الله تعالىٰ لعباده المؤمنين بالإيجاز أو الإطناب إلىٰ المؤمنين راجع إلىٰ رضاه عنهم، أما خطابه للكافرين، فدلالته واضحة في عدم الرضا عنهم، وعدم القبول لأعمالهم؛ لمخالفتها لكلامه تعالىٰ، أمرًا أو نهيًا أو امتثالًا وغيرها، كل ذلك أوصلهم إلىٰ النار وأهوالها، وسيأتي كل ذلك في موضعه من البحث.

ومن هنا كانت رغبتي في فهم تنوع الأسلوب القرآني عند تنوع المُخَاطَبِين، وهي غاية أرغب في تناولها وسبر أغوارها، النابعة من أهمية الموضوع في تتبع وفهم بلاغة صور أسرار أسلوب اللين الموجه للمؤمنين، وأسلوب القوة الموجه للكافرين في الخطاب القرآني بطريقتي الإيجاز والإطناب، وسأتَّبع خطوات المنهج الوصفي؛ لملاءمته لهذا الموضوع، كما اعتمدت عنوان البحث الذي أراه موافقًا لأهميته وهدفه وغايته، ووسمته بـ: (**بلاغة الإيجاز والإطناب القرآني في مخاطبة المؤمنين والكافرين**)، وكسرته علىٰ مقدمة ومبحثين وخاتمة ومسرد للمصادر والمراجع. أبنت في المقدمة عن حدود الموضوع وأهميته والهدف منه، وفكرته التي يعالجها، ووقفت في المبحث الأول عند ((جماليات بلاغة

الإيجاز في الخطاب القرآني للمؤمنين والكافرين))، وهو على صورتين: الصورة الأولى- بلاغة الإيجاز القرآني ودلالاته في مخاطبة المؤمنين. الصورة الثانية- بلاغة الإيجاز القرآني ودلالاته في مخاطبة الكافرين.

وعرضت في المبحث الثاني إلى ((جماليات بلاغة الإطناب في الخطاب القرآني للمؤمنين والكافرين))، وهو على صورتين: الصورة الأولى- بلاغة الإطناب القرآني ودلالاته في مخاطبة المؤمنين. الصورة الثانية- بلاغة الإطناب القرآني ودلالاته في مخاطبة الكافرين.

وأوجزت في الخاتمة أبرز النتائج التي توصل إليها البحث، وسجلت في مسرد المصادر والمراجع ما أفادني من كتب ودراسات في بناء كيان هذا البحث، وقد قدَّم الباحث الإيجاز على الإطناب؛ مراعاة لترتيبه عند علماء البلاغة، وسيرًا على منهجهم في التناول، ولأن الإيجاز سمة بلاغة العرب في كلامهم، مع أن الباحث يرى أهمية تقديم الإطناب في هذا البحث بالذات على الإيجاز؛ تقديمًا لخطاب اللين المطول، المحبب إلى النفس، ودلالاته الماتعة واللينة في مخاطبة المؤمنين بأسلوب الإطناب، بخلاف خطاب الشدة والترويع التي تبدو في أسلوب الإيجاز الموجه إلى الكافرين، والمتعلق بعدم الرضا عند مخاطبتهم، والبعد بينهم وبين ما كلفوا به في الآيات القرآنية عند توجيه الخطاب لهم، وقد اعتمد الباحث ما عليه علماء البلاغة في ترتيبهم لهذين الفنين؛ لكي لا يكون ذلك التغيير عن الأصل نقطة اختلاف في تقديم أحدهما على الآخر، ولإظهار أسلوب الإيجاز الموجه للمؤمنين الذي أتى بأسلوب الرضا والتشويق، ولم يأت في سياق البعد النفسي والإيماني، وسيأتي ذلك كله في محله من البحث.

المبحث الأول- جماليات بلاغة الإيجاز القرآني في مخاطبة المؤمنين والكافرين:

لفت تنوع أسلوب القرآن الكريم إيجازًا وإطنابًا في خطاب فريقي المؤمنين والكافرين أنظار الباحثين والدارسين لبلاغة القرآن ، فنبهوا إلى مراعاته ما يناسب

مع كل فريق منهما من حال ومقال ، وهذا ما نجده عند محمد ابن صُوفِيّة[1] الذي يَسمُ الأسلوب القرآني في كيفية مخاطبة المؤمنين باستعمال الرفق واللين، فيقول: «فهو إذا كان يخاطب المؤمنين ويُشَرِّعُ لهم تجد اللين والإطناب، لمقتضىٰ التشريع ولميل النفس إليه»[2]، كما يسم الأسلوب القرآني في خطاب الكافرين بأسلوب الإيجاز المقرون بالشدة، وفي ذلك يقول ابن صوفيَّة: «وهو في خطاب الكفار والمنافقين شديد في لهجته قصير في فقره وآياته»[3].

وقبل أن أسبر أغوار هذا الفن البلاغي أرىٰ أنه من المفيد أن أعرض في إيجاز لمفهوم الإيجاز في اللغة والاصطلاح؛ ليكون منطلقا في بيان الصور البلاغية المدروسة في هذا الفن البلاغي الكبير.

ففي اللغة: الإيجاز في اللغة: مصدر للفعل الرباعي أوجز، الذي تدور معانيه حول القصر والتخفيف والتقليل والاختصار، يقال: أوجز في كلامه، إذا قصَّرَه، وكلام وجيز؛ أي: قصير[4]، وأوجز القول والعطاء: قلَّله، ووَجُزَ الكلامُ: قَلَّ في بلاغة وأَوْجَزَه[5].

---

(1) هو: الأستاذ الدكتور: محمد مصطفىٰ رمضان محمد بن صُوفِيّة، من أعلام ليبيا في مجال علوم اللغة العربية، وبخاصة الدراسات الأدبية، ومن الأساتذة المتميزين في البلاغة العربية والنقد في الجامعات الليبية وغيرها، ولد في مدينة زليتن وتوفي بها، وعَمَّر في هذه الحياة تسعًا وستين سنة، من سنة 1939م إلىٰ 2008م، -رَحِمَهُ ٱللَّهُ- من آثاره: شرح التلخيص، للبابرتي- تحقيق ودراسة، والمباحث البيانية بين ابن الأثير والعلوي، ومعاني ألفاظ القرآن الكريم -مع نخبة من علماء ليبيين، وديوان شعري، اسمه: (البيان) وغيرها من البحوث العلمية المحكمة. للمزيد: راجع بحث، بعنوان: (من رواد البلاغة العربية في ليبيا، ابن صُوفِيّة وإسهاماته العلمية)، لمحمد علي البحباح، مجلة العلوم الإنسانية والتطبيقية، العدد (30) في 2017/6م، كلية الآداب، الجامعة الأسمرية للعلوم الإسلامية، زليتن. راجع موقع المجلة الإلكتروني(ino@asmarya.edu.ly).

(2) - المباحث البيانية بين ابن الأثير والعلوي ص182.

(3) - المباحث البيانية بين ابن الأثير والعلوي ص182.

(4) - تاج العروس من جواهر القاموس165/8، -وَجَزَ-.

(5) - لسان العرب6/ 477-وَجَزَ-.

أما في الاصطلاح فالإيجاز: هو أداء المقصود من الكلام بأقل من عبارات متعارف الأوساط، أو هو: اندراج المعاني المتكاثرة تحت اللفظ القليل، أو هو: التعبير عن المقصود بلفظ أقل من المتعارف، وافٍ بالمراد؛ لفائدة[1].

وفي تناولي لجماليات الإيجاز القرآني في خطاب المؤمنين والكافرين، سأعرض لبلاغته ودلالاته من خلال مطلبين، هما:

المطلب الأول- بلاغة الإيجاز القرآني ودلالاته في مخاطبة المؤمنين:

سيكون مدار الحديث في هذا المطلب حول بلاغة الإيجاز القرآني من خلال وصف الجنة ونعيمها؛ وذلك في صورتين يحددهما الباحث، وهما: بلاغة الإيجاز القرآني المعنوي والحسي في وصف الجنة، وبلاغة الإيجاز القرآني الحسي في وصف الجنة، بتفصيل نبينه في الآتي:

الصورة الأولى- بلاغة الإيجاز القرآني المعنوي والحسي في وصف الجنة:

نفصل الحديث في هذه الصورة من الإيجاز ببيان إيجاز القرآن المكي في الجمع بين المعنوي والحسي عند وصف الجنة، وكذلك إيجاز القرآن المكي والمدني الحسي في وصف الجنة، **في الآتي:**

1 - بلاغة الإيجاز القرآني المكي المعنوي والحسي في وصف الجنة:

ورد الإيجاز في صفة الجنة باشتهاء النفس، وهو جانب معنوي، يقابله حسية النظر الماتع لجمال وحسن ما تراه الأعين من خيرات كثيرة أوجزها الله في كلمات قليلة، تعبر عن معان عظيمة وخيرات محسوسة كثيرة، كما في قوله تعالى: ﴿وَفِيها ما تَشْتَهِيهِ الْأَنْفُسُ وَتَلَذُّ الْأَعْيُنُ وَأَنْتُمْ فِيها خالِدُونَ﴾[2]، فنرى أن هذه الآية الكريمة المكية دخلت فيها جميع اللذات المعنوية والحسية وشملتها بلا تفصيل لها، ففي هذا الخطاب تشويق للمؤمنين للوصول إليها والظفر بها من

(1) مفتاح العلوم ص277؛ وعلوم البلاغة (البيان والمعاني والبديع)، للمراغي ص183. للمزيد راجع: الطراز لأسرار البلاغة وعلوم حقائق الإعجاز 49/2.

(2) الزخرف: 71.

خلال القيام بالأعمال التي تضمن تحققها، والسعي إلى الظفر بهذه النعم مطلبٌ وغاية حتى لو كانت غير دائمة، فكيف يكون السعي إليها وهي خالدة لا تنفد؟ لا شك أن هذا من جماليات الإيجاز المشوق[1].

ويبين المراغي أن اشتهاء النفس يدخل فيها اللذات الحسية وهو صنوف الأطعمة والأشربة، وكذلك ما تطلبه النفوس وتهواه من أشياء ترغبها؛ لسماعها بها، ولم تتلذذ بها في الدنيا؛ للوصول إلى الغاية العظمى، وهو رؤية وجه الله الكريم، فيقول المراغي في تفصيل ذلك: «وفي الجنة ما تشتهيه أنفس أهلها من صنوف الأطعمة والأشربة والأشياء المعقولة والمسموعة ونحوها؛ مما تطلبه النفوس وتهواه... وفيها ما تقرّ أعينهم بمشاهدته، وأعلاه النظر إلى وجهه الكريم»[2].

ويوضح محيي الدين درويش أنواع النعم، وهي ما تشتهيه القلوب، وما تستلذه النفوس وترغبه، فيقول: «فقد حصر أنواع النعم لأنها لا تعدو أمرين اثنين: إما مشتهاة في القلوب، وإما مستلذة في العيون»[3].

وبذلك يرى الباحث أن اشتهاء القلوب واستلذاذ النفوس قد جمع الأشياء الحسية والمعنوية، وفي جمعهما معًا يكون الرضا قد حصل من المؤمنين الذي يتوافق مع الإيجاز الحسي والمعنوي في قوله تعالى: ﴿لَهُمْ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا ۖ رَّضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا۟ عَنْهُ ۚ ذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ﴾[4]، فجري الأنهار يتناسب مع الأمر الحسي، ورضى الله بأن لا يغضب عليهم أبدًا، هو أمر معنوي عندنا نحن البشر يتحول في بعضه لجوانب حسية، وما عند الله بكيفية يعلمها الله، أما رضا المؤمنين فأصله معنوي؛ لأن الرضا في القلوب يتحول إلى شيء حسي، فالجزاء الذي أعطاهم الله لهم ومنزلة أخذوها بكثرة عملهم ليست لغيرهم، ويوضح

(1) الطراز لأسرار البلاغة وعلوم حقائق الإعجاز130/2.
(2) تفسير المراغي108/25.
(3) إعراب القرآن وبيانه105/9.
(4) المائدة:119.

القرطبي الرضا من الله ومن المؤمنين، بقوله: «أنه راض عنهم رضا لا يغضب بعده أبدا (وَرَضُوا عَنْهُ)؛ أي: عن الجزاء الذي أثابهم به. (ذَلِكَ الْفَوْزُ)؛ أي: الظفر (الْعَظِيمِ)؛ أي: الذي عظم خيره وكثر وارتفعت منزلة صاحبه وشرف»[1].

2 - بلاغة الإيجاز القرآني المكي والمدني الحسي في وصف الجنة:

جاء الإيجاز المشوق في ما ينتظر المؤمن من خيرات، توصل إلى راحة النفس ومبتغاها، معبرًا عن ذلك بِقُرَّةِ العين، وهي صورة الرضا التام والطمأنينة في النفس، فقد ذكر العين وقُرَّتَها وأراد الكل، وذلك في آية مكية في قوله تعالى: ﴿ فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّآ أُخْفِيَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ ﴾[2]، ويبين أبو حيان ورود (لا) النافية في الآية مقترنة بالنكرة لجميع الأنفس، لتدل على نعم كثيرة أخفاها الله على خلقه، تقر بها أعينهم، فيقول: «فَلا تَعْلَمُ نَفْسٌ: نَكِرَةٌ فِي سِيَاقِ النَّفْيِ، فَيَعُمُّ جَمِيعَ الأنفس مما ادّخر الله تَعَالَى لِأُولَئِكَ، وَأَخْفَاهُ مِنْ جَمِيعِ خَلَائِقِهِ مِمَّا تَقَرُّ بِهِ أَعْيُنُهُمْ، لَا يَعْلَمُهُ إِلَّا هُوَ»[3].

ويبدو للباحث أن إخفاء الله تعالى لما أعده لعباده الصالحين، مما تقر به أعينهم، يقع في باب الإيجاز، فلم يذكر نوعية ما تقر به الأعين مفصلاً، كما أن تنكير لفظة (نفس)، التي تدل على العموم، والجمع في كلمة (لهم) التي تبين استحقاق النعم المخفية لعموم عباده الصالحين، من عدد نعم متعددة ، وجاء بعض ذلك في ذكر الجنان السبعة، وصورة ما تقرُّ به العين، وهو النظر إلى وجه ربنا، وذكر البيضاوي هذه الجنان بصورة تفسيرية، ولم يصرح بلفظ الإيجاز، ولكنه ذكر التفصيل في ما وقع فيه، فيقول: «وجمعها وتنكيرها؛ لأن الجنان ... سبع: جنة الفردوس، وجنة عدن، وجنة النعيم... وفي كل واحدة منها مراتب ودرجات متفاوتة على حسب تفاوت الأعمال والعمال، واللام في (لَهُمْ) تدل

(1) الجامع لأحكام القرآن6/381.

(2) السجدة: 17.

(3) البحر المحيط في التفسير8/438.

على استحقاقهم إياها»[1].

كما أنهم أخفوا عملاً صالحًا لم يصرح به الله، فأخفى الله لهم ثوابًا وجزاءً خاصًا، وهذا ما ذكرته بعض كتب التفسير، ومنها ما أشار إليه النيسابوري، بقوله: «إن الناس أخفوا لله طاعة فأخفى لهم ثوابا»[2].

ويستنتج الباحث جماليات الإيجاز في هذه الآية المكية متنوعة منها أن هذا الإيجاز جاء للتشوق بعدم ذكر نوعية عمل عباد الله الصالحين، استلزم الإيجاز في ذكر النعم المخفية من الله تعالى في قوله: (أُخْفِي)، مع اقترانها لمن خصهم الله بها وهم عباده، في قوله: (لهم)، فقد جاءت لتأكيد العموم، بدلالة تعدد الأصناف غير المذكورة تفصيلاً؛ بل تفهم من القرائن العديدة.

ولعل من جماليات هذه الآية المكية أنها أفادت التنكير في هذا الباب (باب الإيجاز) بأن ما أعد لهم من جزاء لا يحصره الوصف، ولعل المراد أيضًا أن تذهب النفوس في فهم المقصود كل مذهب ممكن، ويعضّد هذا الفهم قوله تعالى في الحديث القدسي: ((أَعْدَدْتُ لِعِبَادِي الصَّالِحِينَ مَا لاَ عَيْنٌ رَأَتْ، وَلاَ أُذُنٌ سَمِعَتْ، وَلاَ خَطَرَ عَلَى قَلْبِ بَشَرٍ، ذُخْرا بَلْهَ مَا أُطْلِعْتُمْ عَلَيْهِ))[3].

وورد الإيجاز كذلك في سورة الرحمن، وهي من السور المدنية، في عدة مواضع منها، فقد أوجز هنا في وصف الجنة، فقال تعالى: ﴿وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ جَنَّتَانِ﴾[4]، ويبين الزجاج ما قيل في الصورة العامة للخوف، الواردة في الآية، بإيجاز بلا شرح، فيقول: «قيل من أراد معصية فذكر ما عليه فيها فتركها خوفاً من اللَّه ﷻ ورهبةَ عِقَابه ورجاء ثوابه فله جنتانِ»[5]، ثم جاء الوصف للجنتين في قوله

(1) أنوار التنزيل وأسرار التأويل60/1.
(2) غرائب القرآن ورغائب الفرقان605/5.
(3) الأحاديث القدسية68/1.
(4) الرحمن: 46.
(5) معاني القرآن وإعرابه102/5.

تعالىٰ: ﴿ ذَوَاتَآ أَفۡنَانٍ ﴾[1]، ومفردها (فنن)، والمعنىٰ: ذواتا ألوان، أو ذواتا أغصان، أو ذواتا ظلال[2].

ويرىٰ الباحث أن ذكر الجنتين يدل علىٰ إيجازٍ يُفْهَم بالوصف العام للجنتين، وأنهما في غاية الاشتهاء والتلذذ من كل لون من ألوان الجنتين، كما جعل القرآنُ كل فاكهة يشتهيها الإنسان في الجنة هي علىٰ نوعين أو صنفين، ولونين، كما في قوله تعالىٰ من نفس السورة: ﴿ مِن كُلِّ فَٰكِهَةٖ زَوۡجَانِ ﴾[3]؛ إذ ورد (زوجان) في كتب اللغة بمعانٍ عدة، أقربها بمعنىٰ النوعين، والصنفين، واللونين[4]، كما أن مجيء لفظة (فاكهة) في الآية، علىٰ التنكير، يدل علىٰ التنوع والكثرة والعموم والثبات.

وقد بينه ابن كثير، بقوله: «أَعَمُّ وَأَكْثَرُ فِي الْأَفْرَادِ وَالتَّنْوِيعِ عَلَى فَاكِهَةٍ، وَهِيَ نَكِرَةٌ فِي سِيَاقِ الْإِثْبَاتِ»[5]، وهذا التصوير لفاكهة الجنة بنوعين ولونين.

ويؤكده الماتريدي في تفسيره لهذه الآية، بقوله: «أي: صنفان، أو لونان، من أي شيء كان»[6]، كما نرىٰ هذا المعنىٰ عند القشيري في تفسيره بقوله: «ويقال: ذواتا ألوان من كلّ صنف ولون تشتهيه النّفس والعين»[7]، ويقيد القرطبي (زوجان) بالصنفين، مع بيانه لطعمهما الحلو، فيقول: «أي: صنفان، وكلاهما حلو يستلذ به»[8].

ويضيف ابن عاشور مع الصنف معنىٰ آخر لزوج الفاكهة، وهو النوع، فيقول: «وَالْأَزْوَاجُ: الْأَصْنَافُ، وَالزَّوْجُ يُطْلَقُ عَلَى الصِّنْفِ وَالنَّوْعِ...وَوَجْهُ ذَلِكَ أَنَّ

(1) الرحمن:48.
(2) تاج العروس437/18 –فنن-؛ ومعاني القرآن وإعرابه102/5.
(3) الرحمن: 52.
(4) ينظر: تاج العروس394/3 –زوج-؛ والمعجم الوسيط405/1 –زوج-.
(5) تفسير القرآن العظيم507/7.
(6) تفسير الماتريدي (تأويلات أهل السنة)480/9.
(7) لطائف الإشارات (تفسير القشيري)512/3.
(8) الجامع لأحكام القرآن179/17.

الصِّنْفَ إِذَا ذُكِرَ يُذْكَرُ مَعَهُ نَظِيرُهُ غَالِبًا، فَيكون زوجا»[1].

لذلك يرىٰ الباحث إثبات الصنف والنوع واللون في الآية، ويؤكده ما جاء في النصوص السابقة، أما ما يبين تفصيل الصنف والنوع واللون في الآية، فنراه عند ابن الخطيب في كتابه أوضح التفاسير، بقوله: «صنفان: حلو وحامض، ورطب ويابس، وأحمر وأصفر»[2]، لذلك فهذا التفصيل للفاكهة من حيث الصنف والنوع واللون، الذي لم تذكره الآية، نجده قد جاء في باب الإيجاز الحسي لما في الجنة، وهو المراد من ورود هذه الآية هنا.

كما جاء الإيجاز الحسي في وصف الجنة الدال علىٰ صورة النعيم الحسي في رؤية شيء عظيم يسبق رؤية النعيم في الآية المدنية في قوله تعالىٰ: ﴿وَإِذَا رَأَيْتَ ثَمَّ رَأَيْتَ نَعِيمًا وَمُلْكًا كَبِيرًا﴾[3]، ففي قوله: ((وإذا رأيت))؛ أي: رأيت رضًا من الله، بعدها (ثم رأيت)، فالرؤية الأولىٰ التي قبل (ثم) ليست الرؤية الثانية التي بعدها، فالرؤية الثانية تعبر عن رؤية محسوسة للنعيم والملك الكبير، أما ما قبلها فتعبر عن رؤية معنوية لرضا الله الذي استلزم الرؤية ما بعد التراخي[4]، لذلك فالإيجاز في نوعية الرؤية الأولىٰ المختلفة عن الإيجاز في الرؤية الثانية، وما فيهما من خيرات كثيرة دالة علىٰ الرضا التام.

المطلب الثاني- بلاغة الإيجاز القرآني ودلالاته في مخاطبة الكافرين:

جاء الإيجاز القرآني الموجه للكافرين والمنافقين بالشدة في اللهجة والقِصَر في الفِقَر والآيات، وهذا ما وضحه ابن صوفية فقال: «وهو في خطاب الكفار والمنافقين شديد في لهجته قصير في فِقَرِه وآياته»[5]، ورأىٰ الباحث أن يقسم هذا الإيجاز البلاغي القرآني إلىٰ نوعين، أو صورتين، أولهما- بلاغة الإيجاز القرآني

(1) التحرير والتنوير 285/27.
(2) أوضح التفاسير 658/1.
(3) الإنسان: 20.
(4) ينظر: الطراز لأسرار البلاغة وعلوم حقائق الإعجاز 130/2.
(5) المباحث البيانية بين ابن الأثير والعلوي ص182.

المكي المؤكد بخلود الكافرين في النار، وثانيهما- بلاغة الإيجاز القرآني بعموم العذاب لأهل النار، كالآتي:

1 - الصورة الأولى- بلاغة الإيجاز القرآني المكي المؤكد بخلود الكافرين في النار:

جاء الخطاب القرآني مبينًا الإيجاز التوكيدي في صورة خلود الكافرين المجرمين في نار جهنم يتمنون الموت فلا يتحصلون عليه، مع إهانة وتحقير لهم، فقد ورد الإيجاز القرآني في خطاب الكافرين باستخدام أداة التوكيد (إنَّ) في وصف حالة الكافرين المجرمين، بالخلود في النار، بلا توقف في تعذيبهم، يبيّن الله تعالىٰ صورة الإجمال في الهوان والذلة التي تلبسوا بها فلا تفارقهم، وذلك في أربع آيات مكية في قوله تعالىٰ: ﴿إِنَّ ٱلْمُجْرِمِينَ فِى عَذَابِ جَهَنَّمَ خَٰلِدُونَ ﴿٧٤﴾ لَا يُفَتَّرُ عَنْهُمْ وَهُمْ فِيهِ مُبْلِسُونَ ﴿٧٥﴾ وَمَا ظَلَمْنَٰهُمْ وَلَٰكِن كَانُوا۟ هُمُ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٧٦﴾ وَنَادَوْا۟ يَٰمَٰلِكُ لِيَقْضِ عَلَيْنَا رَبُّكَ ۖ قَالَ إِنَّكُم مَّٰكِثُونَ﴾[1]، وقبل أن ندخل في بيان الإيجاز وفائدته نقف عند معنىٰ الآيات كما جاء في تفسير الطبري، حيث يقول: «لا يخفف عنهم العذاب وأصل الفتور: الضعف... والهاء في (فيه) من ذكر العذاب...والمبلس... هو الآيس من النجاة الذي قد قنط فاستسلم للعذاب والبلاء»[2]، ويبين العلوي هذا الإيجاز بصورة غير تفصيلية، فقال: «يدل علىٰ الهوان من جهة الإجمال»[3].

لذلك يرىٰ الباحث أن استمرار العذاب مع شدته يدل علىٰ فرط هوانهم وذلتهم يومئذ، لذلك جاءت الهاء في كلمة (فيه) للدلالة علىٰ عذاب كثير وكبير، وهذا يقع في باب الإيجاز المؤكد الحسي الذي يدل علىٰ «أن النار وإن أنضجت جلودهم وأحرقتهم، لا يفتر التألم عنهم بنضج الجلود؛ بل التوجع والتألم بعد نضج جلودهم واحتراقها علىٰ ما كان قبل النضج»[4].

(1) الزخرف: 74- 77.
(2) جامع البيان عن تأويل آي القرآن 643/21.
(3) الطراز لأسرار البلاغة وعلوم حقائق الإعجاز 131/2.
(4) تفسير الماتريدي «تأويلات أهل السنة» 186/9.

وهذا كله جاء في باب الإيجاز الحسي الذي يفهم من السياق العام للآيات في النص القرآني كاملاً. ويتضح للباحث أن هذه الآيات على قصرها اشتملت على ضروب من الإيجاز تبدو في اختيار الكلمات الدالة المعبرة المكتنزة بالدلالات، منها وصفهم بالإجرام ، بقوله: (إن المجرمين) فهو يبين استحقاقهم العذاب بسبب فعلهم (الإجرام) حين انتهجوا مسلك الكفر والتكذيب، ومنها استخدام حرف الجر (في) الدال على الظرفية المكانية (في عذاب جهنم)؛ أي: أنهم في وسط عذابهم منغمرون فيه، يحيط بهم من كل ناحية، ومنها استعمال لفظ (خالدون) بما يحمله من دلالات الدوام والتأبيد، وكذلك التعبير بقوله (لا يفتر) الذي جمع دلالة الشدة في العذاب واستمرارها. وكذلك اختيار (مبلسون) في الإخبار عنهم بما يحمله هذا اللفظ من دلالات اليأس والقنوط من كل خير وفرج ونجاة؛ فقد فقدوا الأمل في كل ذلك فسكتوا سكوت يأس وحيرة وانقطاع حجة؛ يذكر الشيخ محمد الشعراوي في قوله تعالى: (وهم فيه مبلسون) يعني: متحسرون يائسون من النجاة، يائسون من الخير، لا أمل عندهم في الخروج منها، وهكذا جمع عليهم كل جوانب الألم والحسرة واليأس وقطع الرجاء.

إن صورة مناداة الكفار لخازن النار (مالك) بطلبهم الموت من الله لهم، فجاء الجواب من (مالك) بعد ألف سنة من طلبهم وذلك في قوله تعالى: (قَالَ إِنَّكُمْ مَاكِثُونَ)[1]، وهذا في سياق نص الخطاب القرآني: ﴿وَنَادَوْاْ يَٰمَٰلِكُ لِيَقْضِ عَلَيْنَا رَبُّكَ قَالَ إِنَّكُم مَّٰكِثُونَ﴾[2]، وهذا ما وضحه الثعلبي في تفسيره بقوله: «وَنادَوْا يا مالِكُ لِيَقْضِ عَلَيْنا رَبُّكَ؛ ليمتنا ربّك فنستريح، فيجيبهم مالك بعد ألف سنة: قالَ إِنَّكُمْ ماكِثُونَ مقيمون في العذاب»[3].

فلك أن تلاحظ هذا الإيجاز العالي في هذا الحوار الوجيز، وما يختزله من عبارات طوال وأحوال ومواقف نفسية يطول بها المقال؛ فقوله (ونادوا)؛ أي:

(1) الزخرف: 77.

(2) الزخرف: 77.

(3) الكشف والبيان عن تفسير القرآن 344/8.

نادىٰ هؤلاء الكفرة المجرمون وهم في العذاب المتواصل يصطلون لعلهم يجدون راحة مما نالهم. إنه نداء استغاثة يتوجهون به إلىٰ خازن النار؛ بعد أن حجبوا عن ربهم لعلّ فيه خلاصًا من أذيّتهم وشقوتهم في عذاب جهنم. يتوجهون إلىٰ الخازن بعبارة وجيزة تعكس إحساسهم ببليغ جرمهم حتىٰ إنهم يعلمون أن المخاطب لن يعطيهم الفرصة في سماع أعذارهم وقبولها؛ لذلك آثروا العبارة الوجيزة لعلها تبلغ أو يجدوا جوابًا. ولم يكن طلب أولئك المجرمين الظالمين العفو والصفح ليقينهم أن أفعالهم تنأىٰ بهم عن ذلك، وإنما طلبوا القضاء؛ أي: نزول الموت والهلاك بهم. ثم إن تأخر الجواب عن طلبهم ألف سنة مما يفتح الباب أمام فصول من الأقوال والمشاعر المصاحبة والمترقبة التي يعيشونها في كل لحظة. وتأتي إجابة خازن النار وجيزة أبلغ ما يكون الإيجاز (إنكم ماكثون)، ففيها إشعار باحتقارهم وإذلالهم، وكراهة الحديث إليهم، فضلاً عن تيئيسهم من حتىٰ الموت.

ويرىٰ الباحث كذلك أن المدة الزمنية ما بين سؤال الكافرين بطلبهم الموت بدل العذاب الذي هم فيه، وما بعده من أهوال وإهانات وعذاب لا يتوقف في ألف سنة، بلا تفصيل له، إلىٰ أن يأتي الجواب لهم من خازن النار (مالك) هو في ذاته إيجاز طويل لأحداث وعذاب في ألف سنة متواصلة من الهوان، وهذا من الإيجاز المفيد زمنًا ولفظًا وألمًا.

كما جاءت صورة الإيجاز المؤكد المهين للمجرمين، في موضع آخر من كتاب الله، مستخدمًا التوكيد كذلك بـ: (إنَّ)، فوصف حالتهم في النار وسعيرها وما فيه من عذاب وهوان وإذلال، وذلك في آية مكية في قوله تعالىٰ: ﴿إِنَّ ٱلْمُجْرِمِينَ فِى ضَلَٰلٍ وَسُعُرٍ﴾[1]، وللوصول إلىٰ معنىٰ الإيجاز في الآية نرىٰ عرض الصورة العامة لها، وهذا ما بينه الطبري، في قوله: «إِنَّ الْمُجْرِمِينَ فِي ذَهَابٍ عَنِ الْحَقِّ، وَأَخْذٍ عَلَىٰ غَيْرِ هُدًىٰ، (وَسُعُر)... فِي احْتِرَاقٍ مِنْ شِدَّةِ الْعَنَاءِ وَالنَّصَبِ فِي الْبَاطِلِ»[2].

(1) القمر: 47.

(2) جامع البيان عن تأويل آي القرآن603/22.

ويشرح ابن كثير الصورة التفصيلية التي ذكرها القرآن بإيجاز عن حال المجرمين وضلالهم في الدنيا بأعمالهم المتنوعة، وعقاب الله لهم في الآخرة بالسعر في النار، بـ: «أَنَّهُمْ فِي ضَلَالٍ عَنِ الْحَقِّ وَسُعُرٍ مِمَّا هُمْ فِيهِ مِنَ الشُّكُوكِ وَالِاضْطِرَابِ فِي الْآرَاءِ، وَهَذَا يَشْمَلُ كُلَّ مَنِ اتَّصَفَ بِذَلِكَ مِنْ كَافِرٍ ومبتدع من سائر الفِرق»[1].

كما نجد المعنىٰ العام في الآية عند المراغي، من غير تصريح به، لكنه يبين صورته من خلال بيان حال المجرمين وهم الكافرون المكذبون بالله ورسوله، فيقول: «إن المشركين بالله المكذبين لرسله- في ضلال عن الصراط المستقيم، وعماية عن الهدىٰ في الدنيا، وعذاب أليم في نار جهنم يوم القيامة»[2].

لذا يرىٰ الباحث أن الإيجاز في الآية لحال المجرمين وضلالهم في الدنيا، وعقابهم في الآخرة بالسعر وهو السعير في النار وما فيه من أهوال وعذاب، واقع في صورة الإيجاز الحسي في الخطاب القرآني، فأوجز القرآن في أعمال الكافرين المجرمين، فلم يذكرها مفصلة، كما أوجز في نوع السعر في الآخرة، ويؤيد ذلك ما شرحه ابن الجوزي مفصلاً ما جاء إيجازًا في إجمال الآية أنواع السعر، بقوله: «وَسُعُرٍ فيه ثلاثة أقوال: أحدها: الجنون، والثاني: العَناء... والثالث: أنه نار تَسْتَعِرُ عليهم»[3].

2 - الصورة الثانية- بلاغة الإيجاز القرآني المكي بعموم العذاب لأهل النار:

جاء بيان وصف أهل النار وهم في داخلها يتذوقون حرارة النار ومرارة الهوان وسوء المصير، بكثرة العذاب وزيادته، بلا ذكر لنوعيته وطرقه؛ وذلك في آية مكية في قوله تعالىٰ: ﴿فَذُوقُواْ فَلَن نَّزِيدَكُمْ إِلَّا عَذَابًا﴾[4].

(1) تفسير القرآن العظيم446/7.
(2) تفسير المراغي100/27.
(3) زاد المسير في علم التفسير203/4.
(4) النبأ: 30.

ويرىٰ الباحث تقسيم هذا الآية إلىٰ قسمين، كل قسم يحمل دلالة في الإيجاز لما تحته من معان كثيرة، هما:

القسم الأول- صورة تذوق العذاب الحسي. والقسم الثاني- زيادة العذاب ونوعه.

ففي القسم الأول ما يأكله أهل النار ويشربونه، كما جاء شرحه عند الطبري، بشرب الحميم والغَسَّاق، في قوله: «يقال لهؤلاء الكفار في جهنم إذا شربوا الحميم والغَسَّاق: ذوقوا أيها القوم من عذاب الله الذي كنتم به في الدنيا تكذّبون»[1]. أما القسم الثاني فصورته متعلقة بزيادة العذاب ونوعه، وفيها آراء بين زيادة نوع العذاب، أو الدوام والخلود في النار مع التعذيب بنفس العذاب، فالزيادة جاءت عند الطبري، بقوله: «فلن نزيدكم إلا عذابًا علىٰ العذاب الذي أنتم فيه، لا تخفيفًا منه، ولا ترفُّهًا»[2]، فالتنكير للعموم، وهذا يرتبط بالإيجاز في زيادة نوع العذاب وكيفيته، وهذا يوضحه كلام عبد الله بن عمرو في هذه الآية في ما ذكره الطبري، في قوله: «قال: لم تنزل علىٰ أهل النار آية أشد من هذه... فهم في مزيد من العذاب أبدا»[3]، ودليل الزيادة في نوع العذاب كذلك ما جاء عَنْ أَبِي الزُّبَيْرِ، عَنْ جَابِرٍ، عَنِ النَّبِيِّ- صَلَّىٰ اللَّهُ عَلَيْهِ وسلم-: أنه قَالَ: «الزِّيَادَةُ خَمْسَةُ أَنْهَارٍ مِنْ تَحْتِ الْعَرْشِ علىٰ رؤوس أهل النار ثلاثة أنهار علىٰ مِقْدَارِ اللَّيْلِ، وَنَهْرَانِ عَلَىٰ مِقْدَارِ النَّهَارِ، كَقَوْلِهِ فِي النَّحْلِ: ﴿زِدْنَٰهُمْ عَذَابًا فَوْقَ ٱلْعَذَابِ بِمَا كَانُوا۟ يُفْسِدُونَ﴾[4]»[5].

أما الشوكاني فيرىٰ أن الزيادة في نوع العذاب الأول لا زيادة عذاب جديد،

(1) جامع البيان عن تأويل آي القرآن169/24.

(2) المصدر نفسه: 169/24.

(3) المصدر نفسه: 169/24.

(4) النحل: 88. وتمام الآية: ﴿ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَصَدُّوا۟ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ زِدْنَٰهُمْ عَذَابًا فَوْقَ ٱلْعَذَابِ بِمَا كَانُوا۟ يُفْسِدُونَ﴾.

(5) تفسير مقاتل بن سليمان564/4. كما يرىٰ الرازي في تفسيره الزيادة في العذاب في قوله: «دَلَّتْ هَذِهِ الْآيَةُ عَلَىٰ أَنَّهُ تَعَالَىٰ يَزِيدُ فِي عَذَابِ الْكَافِرِ أَبَدًا». مفاتيح الغيب21/31.

وذلك في قوله: «وَمِنَ الزِّيَادَةِ فِي عَذَابِهِمْ أَنَّهَا كُلَّمَا نَضِجَتْ جُلُودُهُمْ بَدَّلَهُمْ جُلُودًا غَيْرَهَا، وَكُلَّمَا خَبَتِ النَّارُ زَادَهُمُ اللَّهُ سَعِيرًا»[1].

ويرىٰ الماتريدي كذلك أن العذاب من نفس جنس العذاب الأول، ودلالته في بقائه ودوامه، وذلك في قوله: «الزيادة في العذاب هي دوامه وبقاؤه، لا أن يزادوا علىٰ القدر الذي كان أعد لهم من العذاب؛ لأنه أخبر أنهم لا يجزون إلا مثلها، فإذا كان الذي عذبوا قبله جزاء لهم، لم يجز أن يزادوا عليه، فثبت أن الزيادة انصرفت علىٰ الدوام والبقاء»[2]، ونجد ابن عاشور يفصّلها بجواز الاثنين، في قوله: «فَالزِّيَادَةُ الْمَنْفِيَّةُ فِي قَوْلِهِ: (فَلَنْ نَزِيدَكُمْ إِلَّا عَذاباً) يَجُوزُ أَنْ تَكُونَ زِيَادَةَ نَوْعٍ آخَرَ مِنْ عَذَابٍ يَكُونُ حَاصِلًا لَهُمْ... وَيَجُوزُ أَنْ تَكُونَ زِيَادَةً مِنْ نَوْعِ مَا هُمْ فِيهِ مِنَ الْعَذَابِ بِتَكْرِيرِهِ فِي الْمُسْتَقْبَلِ»[3].

لذلك يرىٰ الباحث أن دلالة الإيجاز واقعة في الآية، سواء في استمرار نفس العذاب أم تنوعه أم زيادته، وقد تقوَّىٰ الإيجاز بـ: بالأمر في قوله: (فذوقوا)، المراد به الإهانة والتحقير لهم، المتضمن أسلوب الالتفات من الغيبة في ما قبلها من آيات إلىٰ الخطاب في هذه الآية، وهذا بالالتفات يكون لزيادة التوبيخ، وكذلك مجيء (لن) التي جاءت لتأكيد النفي، وكل ذلك يبيّن صور الإيجاز الواقعة في الآية، سواء العذاب الأول أم الثاني أم الالتفات أم التوبيخ للكافرين.

الجانب الثاني- جماليات بلاغة الإطناب القرآني في مخاطبة المؤمنين والكافرين:

وردت نصوص قرآنية متعددة تخاطب المؤمنين بأسلوب الإطناب، كما تخاطب الكافرين بالأسلوب نفسه، ولكن كل أسلوب منهما دلالات مختلفة عن الآخر، ونجد العلوي، يوضح طبيعة الإطناب الموجه إلىٰ المؤمنين والكافرين، فيقول: «يكون ورود الإطناب في شرح حقائق الوعد لأهل الجنة، والوعيد لأهل

(1) فتح القدير443/5.

(2) تفسير الماتريدي» تأويلات أهل السنة»397/10.

(3) التحرير والتنوير42/30.

النار، بذكر ما يليق بكل واحد منهما من الأوصاف»[1]، ونورد هذا الإطناب القرآني على قسمين أو صورتين: أولهما- بلاغة الإطناب القرآني في مخاطبة المؤمنين، وثانيهما- بلاغة الإطناب القرآني في مخاطبة الكافرين.

وقبل الغوص في معاني الإطناب القرآني ودلالاته، نود أن نبين مفهوم الإطناب في اللغة والاصطلاح؛ للوصول إلى فهم الصور البلاغية القرآنية الواردة بهذا الأسلوب ودلالاتها المبتغاة، **ففي اللغة**: يقال: «أطنب النَّهر: طَال مجْرَاه، وَيُقَال: أطنب فِي الْكَلَام، أَو في الْوَصْف، أَو في الْأَمر: بَالغ وَأكْثر»[2]. أما **في الاصطلاح**: «أَن يزِيد اللَّفْظ على الْمَعْنى؛ للدلالة على فائدة أو فوائد»[3]. لذلك فالإطناب يُقَابل الإيجاز، ووسطهما الْمُسَاوَاة[4].

وبعد بيان مفهوم الإطناب، نبين بلاغة الإطناب القرآني في مخاطبة المؤمنين، وفي مخاطبة الكافرين؛ ليتضح لنا الفرق في الخطاب الإلهي بين الصنفين، وفي دلالات كل خطاب، في الآتي:

الصورة الأولى- بلاغة الإطناب القرآني ودلالته في مخاطبة المؤمنين:

يتسم أسلوب الخطاب القرآني للمؤمنين بأسلوب الإطناب الجامع ين الرفق واللين والمتعة والتشويق. وتبدو أهم اتجاهات هذا الأسلوب في أمرين مهمين:

(1) الطراز لأسرار البلاغة وعلوم حقائق الإعجاز178/3.

(2) المعجم الوسيط567/2 –طَنَبَ-.

(3) الطراز لأسرار البلاغة وعلوم حقائق الإعجاز130/2؛ ومعجم البلاغة العربية476/1. سيبين الباحث أن دلالة الفائدة هي الفرق بين الإطناب من جهة، والتطويل والتكرير من جهة أخرى، وسيأتي بيان ذلك عند الكلام على اختلاف بلاغة الإطناب على التطويل والتكرير. فما كثرت ألفاظه من غير فائدة فهو التطويل، وما تكررت ألفاظه المتماثلة فهو التكرير. كما أن التكرير نوع من أنواع الإطناب إذا ورد لفائدة، كما أنه وجه من وجوه بلاغة الخطاب القرآني عمومًا.

(4) لم يتناول الباحث المساواة في هذا البحث؛ لخصوصية هدف البحث وغاياته، التي لا تتوافق كليًا مع المساواة، وهو البحث في أسرار الخطاب القرآني ودلالاته عند مخاطبة المؤمنين والكافرين بأسلوب الإيجاز أو الإطناب. أما المساواة فتأتي في غير مراد البحث.

أولهما- في وصف الجنة ونعيمها. وثانيهما- في أحكام التشريع. وقد لفت الإطناب في الاتجاهين أنظار العلماء، فأشاروا إليهما إشارات وجيزة، فهذا الإمام يحيى بن حمزة العلوي يشير إلى النوع الأول، بقوله: ((يكون ورود الإطناب في شرح حقائق الوعد لأهل الجنة))[1]، كما يشير أستاذنا محمد ابن صوفية إلى النوع الثاني، بقوله: ((تجد اللين والإطناب لمقتضى التشريع ولميل النفس إليه))[2].

وبناءً على ما تقدم سندرس الإطناب القرآني في خطاب المؤمنين وفق هذين الوجهين، مقدمين بلاغة الإطناب القرآني المكي والمدني في وصف الجنة ونعيمها على بلاغة الإطناب القرآني المدني في أحكام التشريع، وذلك بناءً على أن جلَّ ما جاء في وصف الجنة ورد في القرآن المكي، وبعضه في القرآن المدني، كما أخَّرْت ذكر بعض أحكام التشريع؛ لأنه من القرآن المدني، وذلك بما يأتي:

1. **بلاغة الإطناب القرآني المكي والمدني في وصف الجنة:**

دلَّت بعض السور القرآنية على هذا التصوير الجميل، فورد هذا الإطناب الحسي المخصوص الموصوف للجنة، وما أعده الله فيها للمؤمنين، ومنها ما جاء في القرآن المكي، ومنها ما جاء في القرآن المدني، وسنعرض شواهد قرآنية لهما، في وصف الجنة، وسأبدأ بالمكي فالمدني، وذلك بما يأتي:

أ- **الإطناب القرآني المكي في وصف الجنة**: وردت آيات متنوعة في بعض السور المكية في وصف الجنة بأسلوب الإطناب الموجه للمؤمنين، ومنه ما جاء في سورة الغاشية والواقعة والنبأ، فقد جاء في سورة الغاشية وصف الجنة في صورة العلو وعدم سماع كلام اللغو في الجنة، وفيها كذلك الماء الجاري الدال على جمال المنظر وصوت الماء الحسن، مع وجود سرر مرفوعة عن الماء وغيره، وأكواب ونمارق وزرابي، كلها في غاية الجمال والرونق والراحة،

(1) الطراز لأسرار البلاغة وعلوم حقائق الإعجاز 178/3.

(2) المباحث بين ابن الأثير والعلوي ص182.

فاجتماع هذه الأوصاف الحسية هو اجتماع الجمال والروعة والبهاء والمتعة الحسية التامة بجميع الحواس، وذلك في قوله تعالىٰ: ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاعِمَةٌ ۝٨ لِّسَعْيِهَا رَاضِيَةٌ ۝٩ فِي جَنَّةٍ عَالِيَةٍ ۝١٠ لَّا تَسْمَعُ فِيهَا لَاغِيَةً ۝١١ فِيهَا عَيْنٌ جَارِيَةٌ ۝١٢ فِيهَا سُرُرٌ مَّرْفُوعَةٌ ۝١٣ وَأَكْوَابٌ مَّوْضُوعَةٌ ۝١٤ وَنَمَارِقُ مَصْفُوفَةٌ ۝١٥ وَزَرَابِيُّ مَبْثُوثَةٌ﴾[1]، ويبين الزمخشري هذا الوصف الحسي المشوق للمؤمنين في الجنة، في الوجوه الناعمة بالبهجة والحسن، نتيجة سعيها الذي ارتضاه الله لهم بما رأت من الثواب والعلو في المكان أو المقدار، بلا لغو؛ بل يتكلمون في الجنة بالحكمة والحمد لله، ثم يصور القرآن العين الجارية في غاية الكثرة، وكذلك السرر المَرْفُوعَةٌ من رفعة المقدار أو السمك، فالمؤمن يرىٰ بهذا الجلوس ما خوّله ربه له من الملك والنعيم[2]، وكذلك النمارق المَصْفُوفَة، وهي مساند ومطارح بعضها إلىٰ جنب بعض، كلما أراد أن يجلس علىٰ مسندة يستند إلىٰ أخرىٰ، ونرىٰ الزَرابِيَّ المبثوثة، وهي البسط المبسوطة الفاخرة والمفرقة في المجالس[3].

لذلك نرىٰ أن الدلالة اتضحت بإطناب جميل في إثبات تمام الرضا بذكر التلذذ بنعيم الجنة، باستعمال حواس الجسم في الجنة، وهي اللمس، والعين، والأذن، واللسان، مع راحة الجسد في فرش الجنة ومساندها، مقترنا كل ذلك بالرضا التام من المؤمنين علىٰ ما وجدوه من نعيم الله لهم، وما خصهم الله به من سعي في الدنيا والآخرة.

كما ورد ذلك الإطناب الماتع للمؤمنين في آيات مكية أخرىٰ في سورة الواقعة في قوله تعالىٰ: ﴿عَلَىٰ سُرُرٍ مَّوْضُونَةٍ ۝١٥ مُّتَّكِئِينَ عَلَيْهَا مُتَقَابِلِينَ ۝١٦ يَطُوفُ عَلَيْهِمْ وِلْدَانٌ

(1) الغاشية: 10- 16.

(2) وفي معنىٰ: (سرر مرفوعة) معان أخرىٰ ذكرها الزمخشري، فقال: «وقيل: مخبوءة لهم، من رفع الشيء إذا خبأه مَوْضُوعَةٌ كلما أرادوها وجدوها موضوعة بين أيديهم عتيدة حاضرة، لا يحتاجون إلىٰ أن يدعوا بها. أو موضوعة علىٰ حافات العيون معدّة للشرب. ويجوز أن يراد: موضوعة عن حد الكبار، أوساط بين الصغر والكبر، كقوله قَدَّرُوها تَقْدِيراً». الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل744/4.

(3) ينظر: الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل743/4، 744.

﴿مُخَلَّدُونَ ﴿١٧﴾ بِأَكْوَابٍ وَأَبَارِيقَ وَكَأْسٍ مِّن مَّعِينٍ ﴿١٨﴾ لَّا يُصَدَّعُونَ عَنْهَا وَلَا يُنزِفُونَ ﴿١٩﴾ وَفَٰكِهَةٍ مِّمَّا يَتَخَيَّرُونَ ﴿٢٠﴾ وَلَحْمِ طَيْرٍ مِّمَّا يَشْتَهُونَ ﴿٢١﴾ وَحُورٌ عِينٌ ﴿٢٢﴾ كَأَمْثَالِ اللُّؤْلُؤِ الْمَكْنُونِ ﴿٢٣﴾ جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿٢٤﴾ لَا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا وَلَا تَأْثِيمًا ﴿٢٥﴾ إِلَّا قِيلًا سَلَامًا سَلَامًا﴾[1].

وَهَذَا الإطناب يبين البشرىٰ التي أعدها الله للمؤمنين، بذكر نعيم الجنة الذي أعدَّه الله لهم، وهو ما تشتاق إليه النفوس في الدنيا، فيطلبونه في الآخرة بالعمل الصالح، فقد جاء ذكر هذا النعيم بأسلوب الإطناب المفيد، بذكر السرر الطويلة المتسعة التي تصلح للنوم عليها والاضطجاع والجلوس والاتكاء، ووصف هذه السرر بأنها موضونة؛ أي: مسبوكة بعضها ببعض، وثيرةٌ صالحةٌ لِلجُلُوسِ وَالاِضْطِجَاعِ عليها، فَلَا تُؤْلِمُ الْمُضْطَجِعَ وَلَا الْجَالِسَ عليها، كما أن صورة الاِتِّكَاء مع صورة التَّقَابُلِ بين المؤمنين، دلالة علىٰ تمام الرضا وكثرة الأنس والمحادثة بين رفقاء الجنة وقوة التلذذ بذلك. ثم تأتي صورة طواف الولدان المُخَلَّدُين حولهم، بأكواب وأباريق الخمر، يُلَبُّون ما يحتاجونه، وهذا دلالة علىٰ كثرة النعيم والراحة التامة، والملازمة الدائمة لهم، وكذلك ديمومة صفة الوِلْدَان، وهو الشباب وكثرة الغضاضة لهم بلا انقطاع، فهم ليسوا كَوِلْدَانِ الدُّنْيَا تنتقل حالتهم من فتوة الشباب إلىٰ الرجولة ومنها إلىٰ الكهولة فالشيخوخة.

ويزيد القرآن في وصف صورتهم بإطناب ماتع مرغب فيه، فيصور صورة الأكواب التي يُصَبُّ فيها الخمر للشاربين، وكذلك صورة الأباريق التي تحمل كميات الخمر الكثيرة، كما عبر عن الخمر بـ: (المَعِين)، وهو: الْجَارِي بلا انقطاع[2]؛ أي: الْخَمْرُ تَجْرِي فِي مَجَارِيها؛ لكثرتها، مع لذتها لمن يشربها[3]، كما وصف الشاربين لهذه الخمر بأنهم لا يصيبهم صداع من شربها، فهي ليست كخمر الدنيا التي ينشأ عنها سكر وصداع في الرأس، وكذلك لا ينزفون عنها؛

(1) الواقعة: 15: 26.

(2) جاء في اللغة أن الماء الوَاتِن، هو: الماء المَعِينُ الدَّائِمُ الذي لا يذْهَبُ، وجاء بمعنىٰ الذي لا يَجْرِي، وقيلَ: الذي لا يَنْقَطِعُ. تاج العروس565/18-وتن-.

(3) كما في سورة محمد، الآية 15، قَوله تَعَالَىٰ: ﴿وَأَنْهَٰرٌ مِّنْ خَمْرٍ لَّذَّةٍ لِّلشَّٰرِبِينَ﴾.

أي: لا يعتريهم اختلاط العقل[1] بسبب الخمر التي لا تقع إلا في الدنيا بخبل العقل وذهابه.

ثم جاء الإطناب في هذه الآيات بصورة أخرىٰ، وهو تخير الفاكهة التي تدل علىٰ كثرتها مع لذة تنوع الأصناف وألوانها، كما أن لفظ الاشتهاء لأفضل اللحوم وأشهاها، وهو لحم الطير، فكسر الشهية تكون بالرغبة في الطعام الرفيع، مع لذة حسن طعمه، بعدها جاءت صورة إطناب أخرىٰ تضاف لسابقاتها لأهل الجنة، وهي الحُورُ العِينُ، وهن النساء ذوات العيون الجميلة[2]؛ إذ هن محيطات بهم يحدقون إليهن من جمالهن، وهن يشبهن اللؤلؤ المكنون، وهو الدُّرُّ المخزون المخبأ لنفاسته[3].

ثُمَّ أَكْمَلَ الله تعالىٰ وصفه لأهل الجنة في وَصْف نعِيمٍ آخر يضاف للأول، وهو سَلَامَة النَّفْسِ مِنْ سَمَاعِ مَا تكْرَهُ سَمَاعَهُ مِنَ الْأَذَىٰ، وهي دلالة علىٰ راحة البال بسماع ما تحب وترغب دون غيره، فلا سماع لكلام اللغو من القول، ولا اللوم والإنكار، بعدها جاءت نعمة أخرىٰ باستثناء متصل ادعاءً، جاء بالمنقطع من اللغو والتأثيم، وهو يضفي علىٰ النفس عزة وكرامة، فقد جاء ذلك بأسلوب بديعي جميل، وهو تأكيد المدح بما يشبه الذم، بإضفاء تكرار لفظتي (سلاما سلاما)، فـ: (سلاما) الأولىٰ هي التسليم بالسلام، بعدها (سلاما) الثانية تكرار للفظة السلام الأول، ولكن لا يقصد به التأكيد، إنما هي لإفادة التعاقب؛ أي: سلام يعقبه سلام آخر، بتعظيم وتبجيل. أما القيل في لفظة (قيلا)، فهي صورة ملائكة الجنة وهي داخلة عليهم مِنْ كُلِّ أبوابها، مبينة لهم سلام علىٰ المؤمنين؛

(1) لا ينزفون: ذكرها الجوهري بمعنىٰ: لا يَسكَرون، يريد لا تنزف عقولهم عن المختار. ينظر: الصحاح تاج اللغة وصحاح العربية1430/4-نزف- وذكر الزبيدي ما قاله الجوهري، وزاد في نفس السياق: «ونُزِفَ، كعُنِيَ: ذَهَبَ عَقْلُه، أَو سَكِرَ». تاج العروس من جواهر القاموس396/24-نزف-.

(2) الحَوَرُ: شدة بياض العين، وشدة سَوَادِها، واسْتدارة حَدَقَتهَا، ورِقَّة جُفُونُها وبياَض مَا حَوَالَيْهَا. ينظر: تاج العروس100/11 -حَوَر-.

(3) ينظر: التحرير والتنوير292/27- 296.

لصبرهم في الدنيا[1] [2].

فهذه الآيات الوجيزات اشتملت على أوصاف عظيمة للجنة منحها الله لعباده المؤمنين، مبينة بعض أصناف النَّعيم التي سيحْظُون بِها؛ لما قدموه من عمل صالح خالص لله في الدنيا، فجاز لهم القرب والقبول والجزاء الأوفى الذي جاء شرحه بإطنابٍ جميلٍ وافٍ.

ومن ذلك الإطناب القرآني للمؤمنين في سورة النبأ، وهي مكية النزول كذلك، في قوله تعالى: ﴿إِنَّ لِلْمُتَّقِينَ مَفَازًا ﴿٣١﴾ حَدَائِقَ وَأَعْنَابًا ﴿٣٢﴾ وَكَوَاعِبَ أَتْرَابًا ﴿٣٣﴾ وَكَأْسًا دِهَاقًا ﴿٣٤﴾ لَا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا وَلَا كِذَّابًا﴾[3]، فقد صوَّر الله جزاء المتقين بأسلوب الإطناب، فذكر ما لهم من الفوز والظفر بالجنة بما فيها من البساتين المليئة بأنواع الشجر المثمر، من أعناب وغيرها، وذات الكواعب وهن أصحاب النواهد اللاتي فلكت ثُدُيُّهُن ذات اللذة، مع صورة الكأس الدهاق وهي المترعة؛ أي: المليئة بالشراب، بلا لغو في الكلام، ولا تكذيب لبعضهم[4].

ويرى الباحث أن هذه الصورة البلاغية القرآنية في وصف جزاء المتقين جاءت مصدَّرة بالتوكيد، بحرف التوكيد (إنّ)، الذي يدفع الشك في أصناف النعيم المذكورة ويزيد من هذا التوكيد القصر بتقديم خبر (إنّ) على اسمها، فهذا النعيم المقيم المتعددة أصنافه مقصور على من اتقى الله تعالى، وهذا يزيد مضمون حكم الجملة التوكيد الكلي لما جاء فيها، وهو لا يخرج عن تمام الفائدة الذي يدخل في دائرة أسلوب الإطناب.

ب- **الإطناب القرآني المدني في وصف الجنة**: نزلت آيات متعددة في بعض السور المدنية في وصف الجنة بأسلوب الإطناب الموجه للمؤمنين، ومنه في سور: محمد، والإنسان، والرحمن، ففي سورة محمد جاء في قوله تعالى: ﴿مَّثَلُ

(1) كما في سورة الرعد، الآية 23، في قوله تعالى: (سَلَامٌ عَلَيْكُمْ بِمَا صَبَرْتُمْ).
(2) راجع: التحرير والتنوير296/27، وإعراب القرآن وبيانه430/9.
(3) ينظر: الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل690/4.
(4) النبأ: 31- 35.

﴿ٱلْجَنَّةِ ٱلَّتِي وُعِدَ ٱلْمُتَّقُونَ ۖ فِيهَآ أَنْهَٰرٌ مِّن مَّآءٍ غَيْرِ ءَاسِنٍ وَأَنْهَٰرٌ مِّن لَّبَنٍ لَّمْ يَتَغَيَّرْ طَعْمُهُۥ وَأَنْهَٰرٌ مِّنْ خَمْرٍ لَّذَّةٍ لِّلشَّٰرِبِينَ وَأَنْهَٰرٌ مِّنْ عَسَلٍ مُّصَفًّى ۖ وَلَهُمْ فِيهَا مِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ وَمَغْفِرَةٌ مِّن رَّبِّهِمْ ۖ كَمَنْ هُوَ خَٰلِدٌ فِى ٱلنَّارِ﴾[1]، فقد جاء الإطناب في هذه الآيات في صورة الاستئناف البياني لتفصيل الآيات التي قبل هذه الآيات من نفس السورة في قوله تعالىٰ: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُدْخِلُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ﴾[2]، فالسامع يريد تفصيل بعض صفات الجنة المجملة في هذه الآية، وكان ذلك التفصيل المطنب في الآيات المدروسة هنا، فكان الإطناب لوصف الأنهار في الجنة التي تجري بأنواع كثيرة مخالفة لأنهار الدنيا، مع اجتماع صفة الجريان في الدنيا والاخرة، لكن التباين واضح، ففي الجنة أنواع من الأنهار، فجاء الوصف الدقيق الماتع لها بأسلوب الإطناب، فيها أنهار من ماء غير آسن؛ أي: غير متغير[3]، وأنهار من لبن لم يتغير طعمه، وأنهار من خمر لذيذة لمن أراد أن يشرب منه، وأنهار من عسل مصفىٰ، فقد بدأ الإطناب بالماء وختمه بالعسل، ويرىٰ ابن عاشور أن أنهار الماء حقيقية، أما الأنهار الثلاثة الأخرىٰ فهي من باب التشبيه البليغ، فيقول: «فَأَمَّا إِطْلَاقُ الْأَنْهَارِ عَلَىٰ أَنْهَارِ الْمَاءِ فَهُوَ حَقِيقَةٌ، وَأَمَّا إِطْلَاقُ الْأَنْهَارِ عَلَىٰ مَا هُوَ مِنْ لَبَنٍ وَخَمْرٍ وَعَسَلٍ فَذَلِكَ عَلَىٰ طَرِيقَةِ التَّشْبِيهِ الْبَلِيغِ»، ونستنبط من كلام ابن عاشور أن دلالة التشبيه هنا أنها مماثلة لصورة أنهار الماء القريبة للذهن، سواء كانت مماثلة تامة للأنهار المستبحرة في أخاديد الجنة الخارقة للعادة غير المعروفة في الدنيا، أم مُمَاثَلَتها لصِفَاتِ الْأَنْهَارِ، مثل: الِاسْتِبْحَار.

أما حقيقة سبب التشبيه، فقد ذكر أَرْبَعَة أَشْرِبَةٍ من أَجْنَاس أَشْرِبَة الناس، وهي: الماء واللبن والخمر والعسل، فكان التشبيه بذكر الصنف الذي عندهم بأفضل منه في الآخرة، أي: ماء الجنة صافٍ غير متغير اللون، أما أمواهكم فقد اختلطت بالتراب والغدران والأحواض وتغير لونها وكثرت فيها الطحالب وآذتها

(1) محمد:15.

(2) مُحَمَّد: 12

(3) معاني القرآن، للفراء60/3.

الحشرات والسباع من الشرب منها، كما أن لَّبَن الجنة لم يتغير طعمه، فهو غير ما تعودتم عليه في الدنيا بتغير طعم لبن الدنيا، وكذلك الخمر عزيزة عندكم في بعض الأوقات، وطعمها مسكر حامض، فهي ليست كما في الجنة؛ إذ خمر الجنة في غاية اللذة مع كثرته، وَكذلك الْعَسَلُ هو مُحبب عندكم، وينقص في بعض الأوقات؛ لأنه يستجلب من الجبال والأراضي ذات الاخضرار المستمر، وليس صافيًا، وفي الجنة عسل مصفى لا تشوبه شائبة، مع كثرته في الجنة كأنهار الماء الحقيقية. وكذلك الثمرات فبعضها موجود عندكم وبعضه لا تعرفونه، وما في الجنة أفضل منه خصوصية ونوعًا، وإن تشابهت المسميات فما فيها خارق للمألوف في الدنيا.

وأرىٰ أن الصورة التشبيهية للأصناف المذكورة توصلنا إلىٰ صورة بلاغة المطابقة، وهي التضاد بين ماء الدنيا وماء الجنة، والتضاد بين لبن الدنيا ولبن الجنة، والتضاد بين خمر الدنيا وخمر الجنة، والتضاد بين عسل الدنيا وعسل الجنة، ثم جاء عموم الثمرات في الجنة، وهي صورة تضاد بين عموم الثمرات في الدنيا، فما في الجنة غير ما في الدنيا، فالتضاد حاصل في عمومه بين ثمرات الدنيا وثمرات الجنة. ثم ختمت بالمغفرة التامة وهذه صور متعددة لا يعلم كنهها إلا الله، وقد تدخل هذه المغفرة في باب الإيجاز لا الإطناب.

وقوله تعالىٰ: ﴿كَمَنْ هُوَ خَالِدٌ فِي النَّارِ﴾، فالناظر يرىٰ أنها صورة تشبيهية، توصل إلىٰ حالة التضاد بين الصنفين، لاختلاف صفتي الجنة والنار، وكذلك اختلاف صورة حال المؤمنين في الجنة عن حال الكافرين في النار، ويرىٰ ابن عاشور أن هاتين الصورتين يحصل بهما الاحتباك في المعنى وتصويره: «كَحَالِ مَنْ هُوَ خَالِدٌ فِي النَّارِ؛ وَذَلِكَ يَسْتَلْزِمُ اخْتِلَافَ حَالِ النَّارِ عَنْ حَالِ الْجَنَّةِ، فَحَصَلَ نَحْوُ الِاحْتِبَاكِ؛ إِذْ دَلَّ مَثَلُ الْجَنَّةِ عَلَى مَثَلِ أَصْحَابِهَا، وَدَلَّ مَثَلُ مَنْ هُوَ خَالِدٌ فِي النَّارِ عَلَى مَثَلِ النَّارِ»[1]، وأرىٰ أن هذا يدل علىٰ المسافة الشاسعة بين حال المؤمنين وحال المشركين يوم القيامة، فالتفاوت جليٌ بين حالتيهما، ومآلهما، فالمؤمنون

(1) التحرير والتنوير 94/26.

في الجنة وما فيها من نعيم، والكافرون في النار وما فيها من عذاب. ففي ذلك بلاغة المقابلة بين حالة الصنفين، ولا شك أن الاحتباك يدخل في بلاغة الإيجاز كما هو مقرر عند أهل العلم بالبلاغة.

كما جاء الإطناب في وصف الجنة وأهلها كذلك في سورة الإنسان، وهي مدنية النزول كذلك، في قوله تعالىٰ: ﴿وَجَزَىٰهُم بِمَا صَبَرُوا۟ جَنَّةً وَحَرِيرًا ﴿١٢﴾ مُّتَّكِـِٔينَ فِيهَا عَلَى ٱلْأَرَآئِكِ ۖ لَا يَرَوْنَ فِيهَا شَمْسًا وَلَا زَمْهَرِيرًا ﴿١٣﴾ وَدَانِيَةً عَلَيْهِمْ ظِلَٰلُهَا وَذُلِّلَتْ قُطُوفُهَا تَذْلِيلًا ﴿١٤﴾ وَيُطَافُ عَلَيْهِم بِـَٔانِيَةٍ مِّن فِضَّةٍ وَأَكْوَابٍ كَانَتْ قَوَارِيرَا۠ ﴿١٥﴾ قَوَارِيرَا۠ مِن فِضَّةٍ قَدَّرُوهَا تَقْدِيرًا ﴿١٦﴾ وَيُسْقَوْنَ فِيهَا كَأْسًا كَانَ مِزَاجُهَا زَنجَبِيلًا ﴿١٧﴾ عَيْنًا فِيهَا تُسَمَّىٰ سَلْسَبِيلًا ﴿١٨﴾ ۞ وَيَطُوفُ عَلَيْهِمْ وِلْدَٰنٌ مُّخَلَّدُونَ إِذَا رَأَيْتَهُمْ حَسِبْتَهُمْ لُؤْلُؤًا مَّنثُورًا﴾[1]، فقد صور القرآن الكريم الجنة بأسلوب الإطناب، جزاءً للمؤمنين الصابرين، فمن النعيم الذي جاء بأسلوب الإطناب ذكر الجنة والحرير، وهم يتمتعون بضياء الجنة، فلا حاجة للشمس والقمر، وظلالها دانية منهم، فقد جاء دخول الواو في كلمة (ودانية)؛ للدلالة علىٰ اجتماع الأمرين لأهل الجنة؛ أي: البعد عن الحر والقرّ، وقرب الظلال عليهم، مع تذلل قطوفها التي يقطفون قطافها كيف شاءوا ومتىٰ أرادوا، فهي ذليلة لهم خاضعة لرغباتهم، فتذلل القطوف، وهو العنقود من التمر أو العنب هو صورة تسخيرها وسهولة تناولها، بأسهل اقتطاف بلا تعب، فقد جاءت استعارة التذلل المتناهي للتيسير في الشيء.

كما زاد في الوصف بأسلوب الإطناب صورة طواف السِّقَاءِ لأهل الجنة طَوَافًا مكررا لا ينقطع بآنية مجالس شرابهم، وزاد في سقيهم، فيشربون مَرَّةً مِنْ كَأْسٍ مِزَاجُهَا الْكَافُورُ، وَمَرَّةً أخرىٰ يُسْقَوْنَ كَأْسًا مِزَاجُهَا الزَّنْجَبِيلُ[2]، من عين تسمىٰ

(1) الإنسان: 12- 19.

(2) الزَّنْجَبِيلُ: من معانيها: الخمر. ينظر: تاج العروس143/29-زنجبل-. وينقل الزبيدي قول الأزهري للمراد من الزنجبيل في الآية فيقول: «فجائِزٌ أَنْ يَكُون الزَّنْجَبِيلُ فِي خَمْرِ الجَنَّةِ، وجائِزٌ أَن يكونَ مِزاجَها، وَلَا غَائِلَةَ لَهُ، وجائِزٌ أنْ يَكونَ اسْماً للعَيْنِ الَّتِي تُؤْخَذُ مِنْهَا هذهِ الخَمْرُ، واسْمُهُ السَّلْسَبِيلُ أَيْضا». ينظر: تاج العروس144/29-زنجبل-.
ويورد الزبيدي قول أبي حنيفة أن كلمة الزنجبيل هي كَلِمَةٌ مُعَرَّبَةٌ وهِيَ فَارِسِيَّةٌ، وَهُوَ اسْمٌ لِجُذُورٍ تَكُونُ فِي الْأَرْضِ، وَهُوَ يَنْبُتُ بِبِلَادِ الصِّينِ وَالسِّنْدِ وَعُمَانَ وغيرها، وَهُوَ أَصْنَافٌ=

سلسبيل، كما يطوف عليهم طَوَافٌ آخَرُ غَيْرُ طَوَافِ السُّقَاةِ الْسابق في الآية، فهو طواف الوِلْدانٌ، ويقصد به الصبية، وذكر الوِلْدان علىٰ الصبية مجازًا باعتبار ما كان، فهم أحسن في الخدمة، كما جاء وصفهم إطنابًا بأنهم مخلَّدون، من باب الاحتراس من اكتهالهم أو تغير صفاتهم، فهم علىٰ حالتهم دومًا، وتشبيههم باللؤلؤ لحسن المنظر[1].

ثم جاءت صورة أخرىٰ لأهل الجنة عقب الآيات السابقة في آية تالية من السورة نفسها (سورة الإنسان المدنية)، وذلك في قوله تعالىٰ: ﴿عَٰلِيَهُمْ ثِيَابُ سُندُسٍ خُضْرٌ وَإِسْتَبْرَقٌ وَحُلُّوٓاْ أَسَاوِرَ مِن فِضَّةٍ وَسَقَىٰهُمْ رَبُّهُمْ شَرَابًا طَهُورًا﴾[2]، هَذِه صور سيتنعم بها أهل الجنة جاءت بأسلوب الإطناب، في ثياب سندس خضر واستبرق[3]، الدال علىٰ حالة الرضا التام للمؤمنين، وأن هذه الأوصاف كان يتمتع بها الملوك في الدنيا، بدلالة قوله تعالىٰ: ﴿وَإِذَا رَأَيْتَ ثَمَّ رَأَيْتَ نَعِيمًا وَمُلْكًا كَبِيرًا﴾[4]، فهي اليوم تعطىٰ لأهل الجنة، فحال أهل الجنة هو حال الملوك، فهي صورة تقريبية لأذهاننا القاصرة، ولكن ما في الجنة أعظم من الصورة المحسوسة عندنا، كما أن التحلي بالزينة معروف في الدنيا للنساء، ولكننا نجد الحلي والتزين في الآخرة للمؤمنين بمختلف أَصْنَافِ الْحُلِيِّ، فجاء وصف الْأَسَاوِر في أكثر من سورة، فهنا مِنْ فِضَّةٍ. وفي موضع آخر من كتاب الله من ذهب[5]، وكأن الأمر متنوع، فمَرَّةً يُحَلَّوْنَ بالفضة، ومرة أخرىٰ بالذهبِ، أَوْ تتم الزينة لهم بهما معًا؛ لبْهَجة المَنْظَر وجماله في جمال لباس

= يستعمل فِي علاج بعض الأمراض، وفي الطِّبْخ. ينظر: تاج العروس144/29.

(1) ينظر: الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل671/4، وما بعدها؛ والتحرير والتنوير29/ 390، وما بعدها.

(2) الإنسان: 21.

(3) الاستبرق: الدِّيباج الصفيق الغليظ الحسَن. ينظر: تهذيب اللغة313/9؛ ولسان العرب77/1 -استبرق-، وزاد الزبيدي، بأنه: «دِيباجٌ صَفِيقٌ غَليظٌ حَسَنٌ يُعْمَلُ بالذَّهَبِ...أَو ثِيابُ حَرِيرٍ صفاقٌ نَحْوُ الدِّيباج». تاج العروس من جواهر القاموس13/ 33-الإستبرَق-.

(4) الإنسان: 20.

(5) وَذلك فِي سُورَةِ الْكَهْفِ: الآية31، فقد وصف الله الأساور بأَنَّهَا مِنْ ذَهَبٍ، وذلك فِي قَوْلِهِ تعالىٰ: ﴿يُحَلَّوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِن ذَهَبٍ﴾.

الحلي، كما يزيد في الوصف بذكر الشراب محترسا من نوعية الشراب الموجودة في الدنيا، فيذكر أن الله يسقيهم شرابًا طهورًا، وذكر ذاته العلية؛ تكريمًا لهم بأن يأمر الله بذلك، ووصف الشراب بصيغة المبالغة في قوله: (طهورًا)؛ للدلالة على المبالغة في إظهار طهارة الشراب ونزاهته من الفساد فيه ولمن يشربه[1].

وينبه الباحث إلى أن هذه الصور المتنوعة الصفات والتي جاءت في غاية الإمتاع والإبداع هي بعض مما ذكره القرآن الكريم في هذا الجانب، وأن هناك صورًا كثيرة مذكورة لم تتضح للباحث؛ لأنها في وصف الجنة، والجنة كما ذكرها الله عز وجل في الحديث القدسي: (أَعْدَدْتُ لِعِبَادِي الصَّالِحِينَ مَا لاَ عَيْنٌ رَأَتْ، وَلاَ أُذُنٌ سَمِعَتْ، وَلاَ خَطَرَ عَلَى قَلْبِ بَشَرٍ، ذُخْرا بَلْهَ مَا أُطْلِعْتُمْ عَلَيْهِ)[2].

ومن الإطناب القرآني المدني كذلك ما جاء في آيات كثيرة من سورة الرحمن، في وصف الجنة، فقد جاء ذكر عيني الجنة من الماء والخمر، وذلك في قوله تعالى: ﴿فِيهِمَا عَيْنَانِ تَجْرِيَانِ﴾[3]، فقد فصل الألوسي في بيان العينين، وذكر أنهما إما من الماء الزلال، واحدة تسمى التسنيم والأخرى السلسبيل، أو أن أحدهما من ماء غير آسن، وأخرى من خمر الجنة، كما أنهما عينان تَجْرِيانِ حيث شاء المؤمن من الأعلى أو من الأسفل من جبل من مسك[4].

ويرى الباحث أن جريان الماء يدل على روعته وجماله وزيادة الكرامة والفضل لأهل الجنة، بلا تعب ولا مشقة مع لذة الماء الذي يستوجب الزيادة في الشكر والحمد، وهذا إطناب لا ينقطع، مثل عدم انقطاع هذا الكرم والفضل الإلهي.

كما ذكر في موضع آخر من السورة نفسها شرب أهل الجنة، من عينين نضاختين؛ أي: كثيرتا الماء مع انفجاره وجَيشَانه من منبعه[5]، وحركتهما صوب

(1) ينظر: التحرير والتنوير 400/29.
(2) الأحاديث القدسية 68/1.
(3) الرحمن: 50.
(4) ينظر: روح المعاني 116/14.
(5) ينظر: الصحاح تاج اللغة وصحاح العربية 433/1. وعند ابن منظور: نَضَّاخَتان؛ أَي: فوُارتان،=

المؤمنين في علوهم، في قوله تعالىٰ: ﴿فِيهِمَا عَيْنَانِ نَضَّاخَتَانِ﴾[1]، فقد صور القرآن حَرَكَةَ الْمَاءِ جهة المؤمنين، وهذا يدل علىٰ عدم التعب وعدم الضنك في الجنة[2].

ونجد القرآن كذلك يستعمل أسلوب الإطناب في بعض أكل المؤمنين، وهي الفاكهة والتمر والرمان، في قوله تعالىٰ: ﴿فِيهِمَا فَاكِهَةٌ وَنَخْلٌ وَرُمَّانٌ﴾[3]، فتنوع الأنواع بين حلاوة التمر والرمان، فالتمر له حرارة في أكله إذا أكثر منه، وهو فاكهة وغذاء، حلاوته تزداد عندما ينبت في الأرض الشديدة الحرارة، أما الرمان فهو فاكهة فقط ينبت في الأرض الباردة، وتزداد حلاوته عندما تتساقط عليه الأمطار، فالتمر ينبت من شجرة النخيل يختلف طولها وعمرها عن شجرة الرمان التي يقصر طولها وعمرها عن شجرة النخيل، فهما ضدان ولكن الإطناب جمعهما في وصف أكل أهل الجنة[4].

كما يشير ابن رشيق القيرواني إلىٰ أن ذكر النخل والرمان بعد ذكر الفاكهة بعدها؛ لفضلهما[5]، ويذكر العلوي أن خصوصية ذكر النخل والرمان مع دخولهما تحت الفاكهة: «تعظيما لأمرهما ومبالغة في رفع قدرهما»[6]، وهذا التنوع في فضل الذكر للفواكه، وخصوصية التسمية لبعض الفواكه يأتي بأسلوب الإطناب الدال علىٰ المبالغة، المتمم للفائدة المرادة، وهو الترغيب في الجنة بالعبادة لله وحده، والبعد عن النار بعدم اتباع الهوىٰ والشيطان.

كما تبدو صور نعيم الجنة في وصف نسائها بالحسن والجمال قوله تعالىٰ:

= والنَّضْخ من فور الماء من العين. ينظر: لسان العرب452/6-نضخ-، ويبين الزبيدي بأنه إذا نَضَخَ المَاءُ: اشتَدَّ فَوَرَانُهُ في جَيشَانه وانفجارِه مِنْ يَنْبوعِه. ينظر: تاج العروس من جواهر القاموس319/4- 320-نضخ-.

(1) الرحمن: 66.

(2) ينظر: مفاتيح الغيب380/29.

(3) الرحمن: 68.

(4) ينظر: مفاتيح الغيب380/29.

(5) ينظر: العمدة في محاسن الشعر وآدابه 70/2.

(6) الطراز لأسرار البلاغة وعلوم حقائق الإعجاز98/2.

﴿ فِيهِنَّ خَيْرَٰتٌ حِسَانٌ ﴾[1]، كما يصور القرآن تلك النساء وجمالهن في قوله تعالىٰ: ﴿ حُورٌ مَّقْصُورَٰتٌ فِي ٱلْخِيَامِ ﴾[2]، فنجد معنىٰ الحور عند الكثير من المفسرين بمعنىٰ البياض، وبعضهم قرن بين البياض وسواد العين، وبعضهم جعل الشدة في البياض في موضعه وشدة سواد السواد في موضعه، فالطبري يذكر أن الله وصف نساء أهل الجنة بالحوراء، وهو البياض[3]، كما جاء معنىٰ الحور عند القرطبي في تفسيره: ((حُورٌ: جمع حوراء، وهي الشديدة بياض العين الشديدة سوادها))[4]، وعند ابن عادل في كتابه اللباب، ذكر أن الحور شدة بياض العين مع سوادها، فيقول: ((الحور: جمع حوراء، وهي الشديدة بياض العين مع سوادها))[5]، ويفصل ابن عاشور ببيان نوع ومواضع البياض والسواد، بشدة بياض الأبيض في العينين وشدة سواد الأسود فيهما، موضحًا أن ذلك من صفات محاسن الجمال عند المرأة، فيقول: ((والحور: جَمْعُ حَوْرَاءَ وَهِيَ ذَاتُ الْحَوَرِ بِفَتْحِ الْوَاوِ، وَهُوَ وَصْفٌ مُرَكَّبٌ مِنْ مَجْمُوعِ شِدَّة بَيَاضِ أَبْيَضِ الْعَيْنِ وَشِدَّةِ سَوَادِ أَسْوَدِهَا وَهُوَ مِنْ مَحَاسِنِ النِّسَاء))[6].

كما وصفهن بأنهن مقصورات في الخيام علىٰ أزواجهن، فلا يطلبن غيرهم، أما لفظة الخيام، فهي البيوت؛ لأن العرب تذكر هوادج النساء وتقصد بهن الخيام[7].

وفي وصف أهل الجنة وتصوير حالهم فيها وهم يتمتعون بما أعدَّ لهم فيها، جاء في قوله تعالىٰ: ﴿ مُتَّكِـِٔينَ عَلَىٰ فُرُشِۭ بَطَآئِنُهَا مِنْ إِسْتَبْرَقٍۚ وَجَنَى ٱلْجَنَّتَيْنِ دَانٍ ﴾[8]، فهي صورة

(1) الرحمن: 70.
(2) الرحمن: 72.
(3) جامع البيان عن تأويل آي القرآن 75/23.
(4) الجامع لأحكام القرآن188/17.
(5) اللباب في علوم الكتاب361/18.
(6) التحرير والتنوير273/27.
(7) جامع البيان عن تأويل آي القرآن 75/23.
(8) الرحمن: 54.

أهل الجنة وهيئة جلوسهم، وهي حالة الاتكاء الدالة على تمام الراحة والطمأنينة والرضا بما قسمه الله لهم من نعيم الجنة، كما في قوله تعالى: ﴿ مُتَّكِئِينَ عَلَىٰ رَفْرَفٍ خُضْرٍ وَعَبْقَرِيٍّ حِسَانٍ ﴾[1]، فقد صور الإطناب حالتهم وهم يَتَّكِؤونَ عَلى المجالس الخضر ذات الألوان المتنوعة، وهم على السرر الحسان، وهي الديباج الموصوفة بتمام الحسن والجمال[2].

ويقول العلوي عن هذه الأوصاف في سورة الرحمن بأنها في باب الإطناب، فقال: «فهذه كلها أوصاف جارية على جهة الإطناب»[3].

لذلك يرى الباحث أن هذه الصور الماتعة في سورة الرحمن في وصف الجنة وأهلها، وما هم عليه من نعم لا تحصى ولا تعد جاءت بأسلوب الإطناب القرآني، وهو يُعدُّ من أمتع الأساليب التي تأتي بالمفيد والجديد لفوائد دلالية عظيمة، منها بيان مكانة المؤمنين يوم القيامة ورضا الله عليهم؛ إذ وصف لهم الجزاء المفصل؛ ترغيبًا لهم في الامتثال لله والتضرع له، وتشويقًا إلى نعيم الجنة، وتشريفًا لهم بهذه المكانة الموعودة.

لقد صور الله لهم ذلك في طواف الولدان عليهم وهم يحملون الأكواب والأباريق والكاس من معين، وإذا رأيتهم حسبتهم لؤلؤاً منثوراً، وثيابهم سندس خضر وإستبرق، يتجملون بأساور من فضة. أما الأكل فنرى الفاكهة التي يتخيرون منها ما يشاؤون، وهي كثيرة لا تنقطع عنهم ولا تمنع، وكذلك النخل والرمان والحب ذو العصف والريحان، مع وجود لحم الطير الذي يشتهون، بالإضافة إلى السدر المخضود والطلح المنضود والظل الممدود والماء المسكوب، وهذا كله وهم على فرش مرفوعة.

كما صور وجود جنتين، ووصفهما بأنهما ذواتا أفنان، وأن فيهما عينين تجريان، وزاد في وصف الجنتين بوجود زوجين من كل فاكهة، ذاكرا وجود

(1) الرحمن: 76.

(2) ينظر: تفسير بحر العلوم389/3.

(3) الطراز لأسرار البلاغة وعلوم حقائق الإعجاز131/2.

عينين ماؤهما متحرك في علو نحو المؤمنين، ثم صور أهل الجنة وهم يتكئون على رفرف خضر وعبقري حسان. وكذلك على فرش بطائنها من إستبرق. وعلى فرش موضونة، أما شرابهم فيسقون في الجنة من كأسٍ مزاجها الزنجبيل، كما ذكر عين السلسبيل، وبيَّن أن فيهن خيرات حسانًا، إلى غير ذلك من نعيم الجنة الموصوف بأسلوب الإطناب المفيد[1]. وهذا النعيم كله لا يتم تصوره إلا ببلاغة أسلوب الإطناب، فالمخاطب حين يوجه إليه كلام تنشرح له نفسه يتطلع ويتشوق إلى معرفة المزيد ويرنو إلى التفصيل والتوضيح، وهذا لا يتحقق إلا بأسلوب الإطناب.

1- بلاغة الإطناب القرآني المدني في أحكام التشريع:

لقد جاء الإطناب التشريعي في العديد من الأحكام في القرآن المدني، ومنه في آيتين وردتا لبيان أحكام الميراث من سورة النساء، وذلك في قوله تعالى: ﴿ يُوصِيكُمُ ٱللَّهُ فِيٓ أَوۡلَٰدِكُمۡۖ لِلذَّكَرِ مِثۡلُ حَظِّ ٱلۡأُنثَيَيۡنِۚ فَإِن كُنَّ نِسَآءٗ فَوۡقَ ٱثۡنَتَيۡنِ فَلَهُنَّ ثُلُثَا مَا تَرَكَۖ وَإِن كَانَتۡ وَٰحِدَةٗ فَلَهَا ٱلنِّصۡفُۚ وَلِأَبَوَيۡهِ لِكُلِّ وَٰحِدٖ مِّنۡهُمَا ٱلسُّدُسُ مِمَّا تَرَكَ إِن كَانَ لَهُۥ وَلَدٞۚ فَإِن لَّمۡ يَكُن لَّهُۥ وَلَدٞ وَوَرِثَهُۥٓ أَبَوَاهُ فَلِأُمِّهِ ٱلثُّلُثُۚ فَإِن كَانَ لَهُۥٓ إِخۡوَةٞ فَلِأُمِّهِ ٱلسُّدُسُۚ مِنۢ بَعۡدِ وَصِيَّةٖ يُوصِي بِهَآ أَوۡ دَيۡنٍۗ ءَابَآؤُكُمۡ وَأَبۡنَآؤُكُمۡ لَا تَدۡرُونَ أَيُّهُمۡ أَقۡرَبُ لَكُمۡ نَفۡعٗاۚ فَرِيضَةٗ مِّنَ ٱللَّهِۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمٗا ﴿١١﴾ وَلَكُمۡ نِصۡفُ مَا تَرَكَ أَزۡوَٰجُكُمۡ إِن لَّمۡ يَكُن لَّهُنَّ وَلَدٞۚ فَإِن كَانَ لَهُنَّ وَلَدٞ فَلَكُمُ ٱلرُّبُعُ مِمَّا تَرَكۡنَۚ مِنۢ بَعۡدِ وَصِيَّةٖ يُوصِينَ بِهَآ أَوۡ دَيۡنٖۚ وَلَهُنَّ ٱلرُّبُعُ مِمَّا تَرَكۡتُمۡ إِن لَّمۡ يَكُن لَّكُمۡ وَلَدٞۚ فَإِن كَانَ لَكُمۡ وَلَدٞ فَلَهُنَّ ٱلثُّمُنُ مِمَّا تَرَكۡتُمۚ مِّنۢ بَعۡدِ وَصِيَّةٖ تُوصُونَ بِهَآ أَوۡ دَيۡنٖۗ وَإِن كَانَ رَجُلٞ يُورَثُ كَلَٰلَةً أَوِ ٱمۡرَأَةٞ وَلَهُۥٓ أَخٌ أَوۡ أُخۡتٞ فَلِكُلِّ وَٰحِدٖ مِّنۡهُمَا ٱلسُّدُسُۚ فَإِن كَانُوٓاْ أَكۡثَرَ مِن ذَٰلِكَ فَهُمۡ شُرَكَآءُ فِي ٱلثُّلُثِۚ مِنۢ بَعۡدِ وَصِيَّةٖ يُوصَىٰ بِهَآ أَوۡ دَيۡنٍ غَيۡرَ مُضَآرّٖۚ وَصِيَّةٗ مِّنَ ٱللَّهِۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَلِيمٞ ﴾[2]، فقد ذكر الإمام الرازي أن الشرائع والأحكام في كتاب الله يأتي بعدها عادة ذكر الإلهيات، أو أحوال الأنبياء، أو يوم القيامة، ووضح أن ذلك من مؤكدات التشريعات والأحكام المذكورة في الآية، وجاء

(1) ينظر: الساق على الساق في ما هو الفارياق ص117 – ترقيم الشاملة آليًا-.
(2) النساء: 11، 12.

ذلك في قوله: «أَنَّ عَادَةَ اللَّه تَعَالَى جَارِيَةٌ فِي هَذَا الْكِتَابِ الْكَرِيمِ أَنَّهُ إِذَا ذَكَرَ أَنْوَاعًا كَثِيرَةً مِنَ الشَّرَائِعِ وَالتَّكَالِيفِ وَالْأَحْكَامِ، أَتْبَعَهَا إِمَّا بِالْإِلَهِيَّاتِ، وَإِمَّا بِشَرْحِ أَحْوَالِ الْأَنْبِيَاءِ، أَوْ بِشَرْحِ أَحْوَالِ الْقِيَامَةِ لِيَصِيرَ ذَلِكَ مُؤَكِّدًا لِمَا تَقَدَّمَ ذِكْرُهُ مِنَ التَّكَالِيفِ وَالشَّرَائِعِ»[1].

ويرىٰ الباحث أن هذا التوكيد بعد هذه الأحكام يدخل في باب الإطناب المتمم للفائدة، فقد جاء بعد بيان المواريث المبينة في هذه الآيات شَرْحُ بعض أحوال يوم القيامة، أعقبها الأمر بعبادة الله بلا شريك، فقد جاءت ذكر جزاء الجنة للمؤمنين؛ لالتزامهم بحدود الله وأحكامه وتشريعاته، وعقوبة النار للكافرين؛ لعصيانهم لحدود الله، وذلك في قوله تعالىٰ: ﴿تِلْكَ حُدُودُ ٱللَّهِۚ وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ يُدْخِلْهُ جَنَّٰتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَاۚ وَذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿١٣﴾ وَمَن يَعْصِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَيَتَعَدَّ حُدُودَهُۥ يُدْخِلْهُ نَارًا خَٰلِدًا فِيهَا وَلَهُۥ عَذَابٌ مُّهِينٌ﴾[2]، ثم رجع لبيان بعض أحكام النساء أعقبها بذكر الإلهيات في عبادة الله وعدم الشرك به، وذلك في قوله تعالىٰ: ﴿وَٱعْبُدُواْ ٱللَّهَ وَلَا تُشْرِكُواْ بِهِۦ شَيْـًٔا﴾[3]، فقد جاء أسلوب الأمر الذي يستوجب إلزام التنفيذ في قوله تعالىٰ: (وَاعْبُدُوا اللَّه)، والنهي بأداة النهي (لا) الداخلة علىٰ الفعل المضارع الدالة علىٰ الكف عن الفعل في قوله تعالىٰ: (وَلا تُشْرِكُوا بِهِ).

كما يتضح للباحث أن هذا التفصيل في هاتين الآيتين في أحكام شرعية؛ لبيان الأنصبة في من يرث، ونصيب كل وارث من الرجال والنساء، بصورة تفصيلية، جاء بأسلوب الإطناب الذي لا ينعقد التمام إلا به، وفائدته تميل النفس إليه وترغبه؛ لبيان الحقوق المالية في إرث الميت لوارثيه، أعقبه بيان حال المُصَدِّقين لأحكام الله، وحال المكذبين لذلك، مختتما بالأمر المباشر الدال علىٰ عبادة الله وحده بلا شريك؛ للدلالة علىٰ توكيد مضمون الحكم الشرعي في الإرث بحقيقة

(1) مفاتيح الغيب456/12.
(2) النساء 13- 14.
(3) النساء: 36.

الجزاء؛ لأن هذه الأنصبة جديدة على المجتمع الإنساني فتطلب التوكيد الضمني بأسلوبي الأمر والنهي، وكله يخدم أسلوب الإطناب الذي ورد في آيتي الإرث وما بعدهما من آيات.

الصورة الثانية- بلاغة الإطناب القرآني ودلالته في مخاطبة الكافرين:

جاء الخطاب القرآني بأسلوب الإطناب بصور حسية ومعنوية، لبيان غرض من أغراض الإطناب، وهو توصيف الأحوال، ومنها ترويع الأحوال وبيان الأهوال، وعبر ابن عاشور عن ذلك في تفسيره، فقال: «وَسَلَكَ الْقُرْآنُ مَسْلَكَ الْإِطْنَابِ لِأَغْرَاضٍ مِنَ الْبَلَاغَةِ، وَمِنْ أَهَمِّ مَقَامَاتِ الْإِطْنَابِ مَقَامُ تَوْصِيفِ الْأَحْوَالِ الَّتِي يُرَادُ بِتَفْصِيلِ وَصْفِهَا إِدْخَالُ الرَّوْعِ فِي قَلْبِ السَّامِعِ»[1].

وسنبين صورة الكافرين بما جاء به القرآن المكي والمدني في الذين خفّت موازينهم وخسرانهم للدنيا والآخرة بالخلود في نار جهنم، وكذلك صور جهنم المتعددة وأحوالهم فيها، وسنذكر ثلاث صور لبلاغة الإطناب في خطاب الكافرين: أولها- الإطناب القرآني المكي الجامع بين المعنوي والحسي، وثانيها- الإطناب القرآني المكي الحسي، وثالثها- الإطناب القرآني المدني الحسي. وكلها توضح صور الإطناب في مخاطبة الكافرين وحالتهم، في التفصيل الآتي:

1- بلاغة الإطناب القرآني المكي، الجامع بين المعنوي والحسي في مخاطبة الكافرين:

ورد الإطناب القرآني المكي الجامع بين المعنوي والحسي في مخاطبة الكافرين في قَوْلِهِ تعالى: ﴿إِنَّمَا يُؤَخِّرُهُمْ لِيَوْمٍ تَشْخَصُ فِيهِ الْأَبْصَارُ ﴿٤٣﴾ مُهْطِعِينَ مُقْنِعِي رُءُوسِهِمْ لَا يَرْتَدُّ إِلَيْهِمْ طَرْفُهُمْ وَأَفْئِدَتُهُمْ هَوَاءٌ﴾[2]، فقد جاء النص القرآني في تمام صورة الإطناب المبين لحالة الكافرين يوم القيامة بصورة تجسيدية تفصيلية، مستخدمًا العيون والرؤوس، والأرجل، والأفئدة، فوضح حالة أعينهم وهي شاخصة مرتفعة

(1) التحرير والتنوير 123/1.

(2) إبراهيم: 43.

النظر من شدة الخوف؛ لهول الموقف بمشاهدة أحوال الظالمين، مع هطع الأعناق؛ أي: مدَّها مع الإسراع في المشي، وهي صورة أخرىٰ لصورة الخائف، وتبينها صورة إقناع الرؤوس الدالة علىٰ الإذلال التام بطأطأتها في ذلك اليوم المهيب، وتنبئ عن بيان حالتهم في اكتمال الخوف بهطع الأعناق الذي يسبقه حالة زَوْغان الأبصار للبحث عن منفذ أو ملجأ من ذلك الموقف الرهيب، فلا يجد إلىٰ ذلك سبيلاً.

وتبقىٰ الصورة الحسية ثابتة في حالة العينين، فلا يستطيع أحد منهم أن يحرك جفني عينيه، فتشخص الأبصار، ويسيطر الرعب علىٰ الكافرين، فلا تتبدل أعينهم ولا يتحولون عن مشاهدة ذلك المشهد المُرْعِب، خوفًا منه، وهذه أسوأ صورة عليهم[1]، هذا التصوير لحالة الكافرين جاء ببلاغة الإطناب في تجسيد كنائي عبر عنه ابن عاشور في قوله: «أَيْ لَا يَعُودُ إِلَىٰ مُعْتَادِهِ، أَيْ لَا يَسْتَطِيعُونَ تَحْوِيلَهُ، فَهُوَ كِنَايَةٌ عَنْ هَوْلِ مَا شَاهَدُوهُ بِحَيْثُ يَبْقَوْنَ نَاظِرِينَ إِلَيْهِ لَا تَطْرَفُ أَعْيُنُهُمْ»[2]، كما زادت صورة الإطناب وضوحا لتمام حالة الكافرين ببيان حالة قلوبهم فهي كالهواء، بحيث لا تدرك أفئدتهم شدة الهول الذي يساقون إليه، وهذا زيادة في صورة العذاب لهم، الذي جاء بصورة تشبيهية بليغة، فهو من التشبيه البليغ؛ أي: أفئدتهم كالهواء[3]، فلم ترد أداة التشبيه، ولا وجه الشبه، وهذا ما بينه صاحب التحرير والتنوير، بقوله: «وَأَفْئِدَتُهُمْ هَواءٌ، تَشْبِيهٌ بَلِيغٌ؛ إِذْ هِيَ كَالْهَوَاءِ فِي الْخُلُوِّ مِنَ الْإِدْرَاكِ لِشِدَّةِ الْهَوْلِ»[4].

ومن صور الإطناب المعنوية والحسية كذلك قوله تعالىٰ: ﴿وَمَنْ خَفَّتْ مَوَٰزِينُهُۥ فَأُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ فِى جَهَنَّمَ خَٰلِدُونَ ﴿١٠٣﴾ تَلْفَحُ وُجُوهَهُمُ ٱلنَّارُ وَهُمْ فِيهَا كَٰلِحُونَ﴾[5]،

(1) ينظر: التحرير والتنوير246/13؛ وتفسير الشعراوي596/12.

(2) التحرير والتنوير247/13.

(3) ينظر: التحرير والتنوير246/13.

(4) التحرير والتنوير247/13. للمزيد راجع تفسير الشعراوي597/12.

(5) المؤمنون: 103- 104.

فهي تبين بلاغة الإطناب الجامع بين الحسي والمعنوي، في بيان حالة الكافرين وصورة الإذلال وخسران النفس وخيبة الأمل، المرتبطة بانكسار النفس وهوانها، الموصول كله بصورة حسية تبين نوع العقاب لذلك الخسران في لفح جهنم لوجوههم، أي؛ شدة إصابتها وحرقها بالنار، وهذا الحرق مرتبطٌ بحاسة اللمس الآتية من حرارة النار عبر الجلد.

ونجد الزمخشري يصور أثر حرارة النار في الوجوه، ببيان معنى الكلوح في تلك الوجوه المشوية، في قوله: «والكلوح: أن تتقلص الشفتان وتتشمرا عن الأسنان، كما ترى الرؤوس المشوية»[1]، ويصور ابن عاشور شدة الألم مع أثر الحرق في الوجوه ببيان معنى الكلوح ، بقوله: «وَالْكَالِحُ: الَّذِي بِهِ الْكُلُوحُ، وَهُوَ تَقَلُّصُ الشَّفَتَيْنِ وَظُهُورُ الْأَسْنَانِ مِنْ أَثَرِ تَقَطُّبِ أَعْصَابِ الْوَجْهِ عِنْدَ شدَّة الْأَلَم»[2].

ويبين ابن عاشور السبب في ذكر الوجه، بأن الوجه هو أشد الأعضاء ألمًا من حَرِّ النار[3].

وأرى كما يظهر في الآية من خلال كلام الزمخشري وما يفهم من كلام صاحب التحرير والتنوير أن التعبير بشدة الألم وذكر الوجوه للدلة على الحرق الشديد وآثار ذلك الحرق في الوجوه دون غيره من الأعضاء، فهذا من باب ذكر الجزء وهو الوجه وأراد كامل الجسد بالألم، فهي صورة حسية تزيد حالة الكافرين تفصيلا في ألمهم؛ باختيار الوجه للدلالة على الإهانة والتحقير المعنوي بمكان الحرق وهو الوجه.

كما نجد صور الإطناب المعنوي والحسّي في قوله تعالى: ﴿كَلَّآ إِذَا بَلَغَتِ ٱلتَّرَاقِيَ ﴿٢٦﴾ وَقِيلَ مَنْۜ رَاقٍ ﴿٢٧﴾ وَظَنَّ أَنَّهُ ٱلْفِرَاقُ ﴿٢٨﴾ وَٱلْتَفَّتِ ٱلسَّاقُ بِٱلسَّاقِ﴾[4]، فالآيتان تتحدثان عن جانب معنوي مقرون بجانب حسي، فنجد خروج الروح من الجسد، وكيفية النزع حتى تصل

(1) الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل3/204.
(2) التحرير والتنوير18/127.
(3) ينظر: التحرير والتنوير15/309.
(4) القيامة:26- 29.

الروح إلى التراقي، وهي العظام القريبة من ثغر النحر لتكتمل علمية زهوق الروح وخروجها من جسم الإنسان، هذا الخروج هو أول مراحل الآخرة . فالروح ليست حسية؛ بل أثرها يقع في دائرة الحس، ممزوجًا الألم عند النزع والتفاف الساق بالساق فهده مما يقع في دائرة الحس بالبصر والشعور.

ويفصل ابن عاشور بإطناب تفصيلي لصورة خروج الروح عند بلوغ الحنجرة، بقوله: «أَنَّ الرُّوحَ بَلَغَتِ الْحَنْجَرَةَ حَيْثُ تَخْرُجُ الْأَنْفَاسُ الْأَخِيرَةُ، فَلَا يُسْمَعُ صَوْتُهَا إِلَّا فِي جِهَةِ التَّرْقُوَةِ، وَهِيَ آخِرُ حَالَاتِ الِاحْتِضَارِ»[1]، وهذا ما يذكره الشنقيطي كذلك مصورًا بلوغ التراقي بحالات النزع في قوله: «فَهَذِهِ حَالَاتُ النَّزْعِ، وَالرُّوحُ تَبْلُغُ الْحُلْقُومَ وَتَبْلُغُ التَّرَاقِيَ»[2].

ويقال إن التراقي لا يقصد به الروح والنزع من الرقبة؛ بل الرُقْيَة أي: التحصين من الألم، بقوله: «أيكم يرقيه مما به؟»[3]، كما قيل إنه من كلام الملائكة في رفع روحه: «أيكم يرقى بروحه؟»[4].

أما ابن عاشور فنجده يصرح بالإطناب في الآيتين، ويضعهما في صور التوصيف لأحوال النار؛ لإدخال الروع في قلب السامع، في قوله: «وَسَلَكَ الْقُرْآنُ مَسْلَكَ الْإِطْنَابِ لِأَغْرَاضٍ مِنَ الْبَلَاغَةِ وَمِنْ أَهَمِّ مَقَامَاتِ الْإِطْنَابِ مَقَامُ تَوْصِيفِ الْأَحْوَالِ الَّتِي يُرَادُ بِتَفْصِيلِ وَصْفِهَا إِدْخَالُ الرَّوْعِ فِي قَلْبِ السَّامِعِ»[5].

وأرى أن لفظة البلوغ في قوله تعالى: ﴿كَلَّآ إِذَا بَلَغَتِ ٱلتَّرَاقِيَ﴾، والتفاف الساق بالساق في الآية، يدلان على أن هذه الحالة هي حالة نزع الروح من الجسد؛ لأن السياق التصويري المطنب في صورة النزع تثبت ذلك، وإذا ثبت ما قيل بأن الملائكة هي التي تسأل عن تحصينه أو رفع روحه، فكله يزيد الصورة إطنابًا بتدخل الملائكة

(1) التحرير والتنوير358/29

(2) أضواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن375/8.

(3) الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل664/4.

(4) الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل664/4.

(5) التحرير والتنوير123/1.

فتتسع الدائرة في سؤال الملائكة غير المحسوس للناس، وجواب ملائكة آخرين غير محسوسة لدينا، مع صورة الرفع إلى السماء، وهي غير المحسوسة كذلك.

2-بلاغة الإطناب القرآني المكي الحسي في مخاطبة الكافرين:

جاء أسلوب الإطناب حسيًا ومعنويا لترويع الأحوال وبيان الأهوال التي أعدها الله للكافرين يوم القيامة، وهنا نتكلم عن الإطناب القرآني الحسي الذي ورد فيه الترويع بحاسة البصر، في قَوْلِهِ تعالى: ﴿ فَلَوْلَآ إِذَا بَلَغَتِ ٱلْحُلْقُومَ ﴿٨٣﴾ وَأَنتُمْ حِينَئِذٍ تَنظُرُونَ ﴾[1]، ففي النظر إلى المحتضر وروحه غير المرئية تصل إلى الحلقوم، وهنا تصاحب تلك الحالة صور ظاهرة مريعة، تتحسسها بحاسة البصر، وذلك في إظهار حالة المحتضر وما يعانيه من آلام في سكرات الموت وأوجاعها، ويثبت الله أنه أقرب منكم بملائكته وأنتم تنظرون لذلك المحتضر، ويفسر القرطبي ذلك القرب بالقدرة والعلم والرؤية، وهذا ما يتضح في قوله تعالى: ﴿ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنكُمْ وَلَٰكِن لَّا تُبْصِرُونَ ﴾؛ أي: لا ترونهم. ويبدو لي أن هذا القرب هو قرب غير حسيٍّ نستشعره بالعين المجردة؛ أي: لا يدرك بحاسة البصر، بدليل قوله تعالى: ﴿ وَلَٰكِن لَّا تُبْصِرُونَ ﴾؛ أي: لا تبصرون بأعينكم الملائكة، كما لا ينفي القرب، وهو قرب الله منكم بعلمه وقدرته ورؤيته بما يليق به سبحانه وتعالى[2].

كما يثبت محيي الدين درويش أن في الآية حرف توبيخ وتنديم في كلمة (فلولا) التي غالبًا ما تقترن بـ: (إذا) الظرفية، ويبين أن بلوغ الروح الحلقوم تدخل في باب الاستعارة المكنية[3]، ويصور ذلك بـ: « كأنما الروح شيء مجسم يبلغ الحلقوم في حركة محسوسة»[4].

وأرى هنا أن الصورة تأتي في تصوير الروح شيئًا مجسمًا يسري في الجسم حتى يصل إلى الحلقوم بصورة حسية تامة، ننظر إليها من خلال آثارها الظاهرة

(1) الواقعة: 83- 84.

(2) ينظر: تفسير القرآن العظيم8/34- 35؛ والجامع لأحكام القرآن17/231.

(3) ينظر: إعراب القرآن وبيانه3/113.

(4) إعراب القرآن وبيانه9/449.

على حالة المحتضر لا صورة الروح.

2 - بلاغة الإطناب القرآني المدني الحسي في مخاطبة الكافرين:

ورد الإطناب مجسدًا صورة الكافرين في وسط جهنم، في قوله تعالى: ﴿فَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ قُطِّعَتۡ لَهُمۡ ثِيَابٞ مِّن نَّارٖ يُصَبُّ مِن فَوۡقِ رُءُوسِهِمُ ٱلۡحَمِيمُ ١٩ يُصۡهَرُ بِهِۦ مَا فِي بُطُونِهِمۡ وَٱلۡجُلُودُ ٢٠ وَلَهُم مَّقَٰمِعُ مِنۡ حَدِيدٖ ٢١ كُلَّمَآ أَرَادُوٓاْ أَن يَخۡرُجُواْ مِنۡهَا مِنۡ غَمٍّ أُعِيدُواْ فِيهَا وَذُوقُواْ عَذَابَ ٱلۡحَرِيقِ﴾[1]، فالإطناب يحصل في تصوير صورة الذين كفروا في وسط جهنم بتقطيع ملابسَ لهم من نار، وهي ثياب محرقة للجلود، وهذه من خصوصيات الآخرة في نارها وثيابها، ثم يصب فوق رؤوسهم الماء الشديد الحرارة، فيدخل لبطونهم فيصهر ذلك الماء أمعاء الكفار في وسط النار.

وعند محاولة الخروج من النار؛ أي: أشرفوا على الخروج ودنوا منه، من شدة الهول والتعذيب فتضربهم النار بلهبها، وإذا كانوا في أعلاها ضربوا بمقامع محرقة من حديد، فهووا في النار سبعين خريفًا، فمع العذاب تحصل لهم الصورة المرتبطة بالإهانة والتحقير والخيبة مع حسية الألم المتجدد، وهكذا هي حالهم[2].

ويرى الألوسي أن إرادة الكفار في الخروج من النار هي إرادة مجازية، في قوله: «كُلَّما أَرادُوا أَنْ يَخْرُجُوا مِنْها؛ أي: أشرفوا على الخروج من النار ودنوا منه... أنها تضربهم بلهبها فترفعهم... فالإرادة مجاز عن الإشراف والقرب»[3].

ويرى الباحث أن الإرادة المجازية في هذه الآية، لا يمكن إثباتها إلا إذا اعتبرنا أن النية القصد والعزم والمشيئة في رغبتهم الخروج من النار، ولكنها لم تتحقق بالخروج، فالإشراف والقرب من الخروج جعلها في صورة التحقق؛ لأنه لا إرادة حقيقية لهم ولا مشيئة حقيقية لهم، ولا نية ولا عزم حقيقي لهم، فكلها مرتبطة بالقبول والرفض، مع حرية الاختيار، والكافر لا يتصرف في أي صورة من تلك

(1) الحج: 19- 22.
(2) ينظر: التحرير والتنوير 230/17.
(3) روح المعاني 129/9.

الصور، لذلك لا صورة حقيقية له، فإرادته مجازية وليست حقيقية. وللباحث في موضوع الإرادة المجازية والحقيقية بحث مستقل، تناول هذه القضية بين العلماء[1].

ويرىٰ محيي الدين درويش أن في الآيات استعارة تمثيلية، ففي قوله تعالىٰ: (قُطِّعَتْ لَهُمْ ثِيابٌ مِنْ نارٍ)، نجد التصوير القرآني يبين تلك الاستعارة بقوله: «استعارة تمثيلية، جعل تقطيع الثياب وتفصيلها علىٰ قدود الكفار بمثابة الإحاطة بهم مع التهكم الذي ينطوي عليه؛ أي: أنها تشتملهم وتحتويهم كما تشتمل الثياب لابسها وتحتويه»[2].

كما نجد بلاغة الأرداف[3] في قوله تعالىٰ: ﴿يُصَبُّ مِن فَوْقِ رُءُوسِهِمُ ٱلْحَمِيمُ﴾، ففي صب الحميم فوق الرؤوس موضوعه في الأصل غضب الله وعدم رضاه علىٰ الكافرين بسبب عنادهم، وصهر الرأس دلالة علىٰ تعذيب الرأس الذي هو مصدر التفكير والتعبير عن الكفر، ففيه المخ والعيون واللسان وكل الأجهزة التي تأمر غيرها من الأعضاء فتُنَفِّذ ما يطلبه منها، ذلك أن الرأس إذا استقام استقامت كل الأعضاء وقصرت عن غيها، فكان صب الحميم ردفًا للعذاب، والعذاب ردف وتابع لِصَبِّ الحميم فوق الرأس. كما أن الثياب التي لبسوها من نار تضم جميع

(1) راجع البحث المنشور في مجلة أعمال المؤتمر العلمي الأول لكلية الآداب، جامعة طرابلس، ليبيا، في الفترة من: 16- 18/مايو/2015م. بعنوان: (المجاز فِي قَوْلِهِ تَعَالَىٰ: ﴿جِدَارًا يُرِيدُ أَن يَنقَضَّ﴾ بين الإجازة والمنع)، الجزء الثاني، الصفحات من: (15- 42).د. محمد علي البحباح.

(2) ينظر: إعراب القرآن وبيانه 417/6.

(3) يعرفه أبو هلال العسكري، ذاكرًا الأرداف والتوابع معًا، بقوله: «الأرداف والتوابع: أن يريد المتكلم الدلالة علىٰ معنىٰ فيترك اللفظ الدالّ عليه، الخاص به، ويأتي بلفظ هو ردفه وتابع له، فيجعله عبارة عن المعنىٰ الذي أراده، وذلك مثل قول الله تعالىٰ: ﴿فِيهِنَّ قَٰصِرَٰتُ ٱلطَّرْفِ﴾، وقصور الطرف في الأصل موضوعة للعفاف علىٰ جهة التوابع والأرداف؛ وذلك أن المرأة إذا عفّت قصرت طرفها علىٰ زوجها، فكان قصور الطرف ردفا للعفاف، والعفاف ردف وتابع لقصور الطرف». كتاب الصناعتين الكتابة والشعر ص 350. للمزيد راجع: معجم البلاغة العربية300/1-302؛ وإعراب القرآن وبيانه417/6.

الجسد إلا الرأس، فكان أمر تعذيبه الخاص، فكان صب الحميم عليه، بلفظة (يُصَبُّ) في الآية الدالة على الكثرة والاستمرارية وهي اللفظة الأنسب لتمام التعذيب.

ويتبين للباحث أن تعذيب الرؤوس؛ لأنها مصدر العناد وفيها دلالة الإيماء والإشارة بها، فقد تكبروا على الرسول بما فيها من عقلهم الجاحد ولسانهم الرافض للشهادتين، فكانت البداية بالرؤوس حتى تصل النار إلى بطونهم؛ لتكتمل صورة الحرارة داخليًا وخارجيًا، فكفرهم في قلوبهم وفي العلن، فجاء العذاب ظاهرًا وباطنًا، كما أن إجراء الاستعارة التمثيلية يتفق مع الإطناب المفصل في الآيات المصورة بصورة حسية.

خاتمة البحث:

بعد هذه الإضاءات البلاغية حول بعض النصوص القرآنية المكية والمدنية التي خاطب الله تعالى بها المؤمنين والكافرين بأسلوبي الإيجاز والإطناب، نَخْلُص إلى مجموعة من النتائج نوجزها في الآتي:

1- تنوع الخطاب القرآني المكي والمدني للمؤمنين بأسلوبي الإيجاز والإطناب، في بيان طرق الوعد لعباده المقربين، وتهيئة النفس لهم بالصور الحسية والمعنوية في بيان الأحكام والترغيب في الجنة ونعيمها.

2- جاء الخطاب القرآني المكي والمدني للكافرين بالأسلوبين، بين الوعيد بالنار وصورها المرعبة، والزجر في مخالفة أحكام الله، والتوبيخ عن الإساءات التي يقوم بها أهل الكفر في مخالفة الأنبياء والرسل.

3- وردت بلاغة الإيجاز القرآني المكي المعنوي والحسي، في مخاطبة المؤمنين بوصف الجنة ونعيمها في سورة كثيرة، منها في سورة الزخرف، والمائدة وغيرهما.

4- اهتمام القرآن المكي والمدني بالإيجاز الحسي في وصف الجنة، كما في سورتي السجدة، والرحمن.

5- جاءت حلاوة الخطاب القرآني المكي بأسلوب الإيجاز الحسي والمعنوي

للمؤمنين في وصف الجنة بأرق العبارات وأفضلها؛ تشوُّقًا لها.

6 - ورد الإيجاز القرآني المكي الحسي، بتأكيد خلود الكافرين في النار، في سورتي الزخرف، والقمر.

7 - يبين أسلوب الإيجاز القرآني المكي الحسي عند مخاطبة الكافرين، صور عموم العذاب لأهل النار، في تصوير يبين تذوق العذاب الحسي المبين لأكل أهل النار وشرابهم، وفي بيان زيادة العذاب ونوعه للكافرين، كما في سورة النبأ.

8 - نرىٰ أن الإيجاز في الخطاب القرآني المكي الحسي هو الذي يظلل بظلاله عند مخاطبة الكافرين في تصوير صور جهنم.

3 - يصور الله تعالىٰ الجنة ويصفها للمؤمنين بأسلوب الإطناب القرآني المكي؛ ترغيبًا للمؤمنين في نعيمها؛ لأنها جاءت في سور افتتحت بالحديث عن يوم الآخرة، وهي سورة الغاشية، والواقعة، والنبأ.

9 - جاء وصف الجنة الماتع بأسلوب الإطناب القرآني المدني، عند مخاطبة المؤمنين؛ تحبيبًا لهم فيها، وتلطفًا مع عباده المخلصين، كما في سورة محمد، والإنسان، والرحمن.

10 - انفرد القرآن المدني ببيان أحكامَ التشريع بأسلوب الإطناب، ومنه آيات أحكام الميراث في سورة النساء.

11 - تضمن أسلوب الإطناب القرآني المكي، الجامع بين المعنوي والحسي في مخاطبة الكافرين في سور متعددة، منها: سورة إبراهيم، والمؤمنون، والقيامة، وقد جاءت مبينة لأحوال الإذلال وخسران النفس وخيبة الأمل عندهم، والمرتبط بانكسار النفس وهوانها، الموصول كله بصورة حسية تبين نوع العقاب الجامع.

12 - ورد الإطناب القرآني المكي الحسي في سورة الواقعة؛ لترويع الكافرين يوم القيامة، باستعمال حاسة البصر، بوصف وبيان الأهوال التي أعدها الله لهم.

13 - جسدت آيات من سورة الحج صور الإطناب القرآني المدني الحسي في مخاطبة الكافرين، بصورتهم المحسوسة في وسط جهنم.

14 - نزل القرآن المكي أكثر من القرآن المدني في بيان أهوال جهنم عند مخاطبة الكافرين.

==========

المصادر والمراجع:

** القرآن الكريم، برواية الإمام قالون عن نافع المدني.

- الأحاديث القدسية، إعداد وتدقيق: جمال محمد علي الشقيري. مكتبة دار الثقافة للنشر والتوزيع، عمان – الأردن.
- أضواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن، لمحمد الأمين بن محمد المختار بن عبد القادر الجنكي الشنقيطي. دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت، لبنان،1415هـ - 1995م.
- إعراب القرآن وبيانه، لمحيي الدين بن أحمد مصطفى درويش. دار الإرشاد للشؤون الجامعية، حمص، سورية، دار اليمامة، دمشق، بيروت، ودار ابن كثير، دمشق، بيروت، ط4، 1415هـ.
- أنوار التنزيل وأسرار التأويل، لناصر الدين أبي سعيد عبد الله بن عمر بن محمد الشيرازي البيضاوي. تحقيق: محمد عبد الرحمن المرعشلي، دار إحياء التراث العربي، بيروت، ط1، 1418هـ.
- أوضح التفاسير، لمحمد محمد عبد اللطيف بن الخطيب. المطبعة المصرية ومكتبتها، ط6، رمضان 1383 هـ - فبراير1964م.
- بحر العلوم، لأبي الليث نصر بن محمد بن أحمد بن إبراهيم السمرقندي. لان، لاط، لات.
- البحر المحيط في التفسير، لأبي حيان محمد بن يوسف بن علي بن يوسف بن حيان الأندلسي. تحقيق: صدقي محمد جميل، دار الفكر، بيروت،1420 هـ.
- تاج العروس من جواهر القاموس، لمحمّد بن محمّد بن عبد الرزّاق الحسيني، الملقّب بمرتضى الزَّبيدي. دار الفكر، بيروت، ط1، 1414هـ.
- تفسير التحرير والتنوير، لمحمد الطاهر بن محمد بن محمد الطاهر بن عاشور التونسي. الدار التونسية للنشر، تونس، 1984هـ.
- تفسير الشعراوي، للشيخ محمد متولي الشعراوي. مطابع أخبار اليوم، لاط، 1997م.
- تفسير القرآن العظيم، لأبي الفداء إسماعيل بن عمر بن كثير القرشي البصري. تحقيق: سامي بن محمد سلامة، دار طيبة للنشر والتوزيع، ط2، 1420هـ- 1999م.
- تفسير الماتريدي (تأويلات أهل السنة) لمحمد بن محمد بن محمود، أبو منصور الماتريدي. تحقيق: د. مجدي باسلوم، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ط1، 1426هـ - 2005م.
- تفسير المراغي، لأحمد بن مصطفى المراغي. شركة مكتبة ومطبعة مصطفى البابى الحلبي وأولاده بمصر، ط1، 1365هـ - 1946م.

- جامع البيان عن تأويل آي القرآن، لمحمد بن جرير بن يزيد بن كثير بن غالب الآملي، أبو جعفر الطبري. تحقيق: أحمد محمد شاكر، مؤسسة الرسالة، ط1، 1420هـ - 2000م.
- الجامع لأحكام القرآن، لأبي عبد الله محمد بن أحمد بن أبي بكر بن فرح الأنصاري الخزرجي شمس الدين القرطبي. تحقيق: هشام سمير البخاري، دار عالم الكتب، الرياض، المملكة العربية السعودية، لاط، 1423 هـ-2003م.
- روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني، لشهاب الدين محمود بن عبد الله الحسيني الألوسي. تحقيق: علي عبد الباري عطية، دار الكتب العلمية، بيروت، ط1، 1415هـ.
- زاد المسير في علم التفسير، لجمال الدين أبو الفرج عبد الرحمن بن علي بن محمد الجوزي. تحقيق: عبد الرزاق المهدي، دار الكتاب العربي، بيروت، ط1، 1422هـ.
- الساق على الساق في ما هو الفارياق، لأحمد فارس بن يوسف ابن منصور الشدياق. لاط، لات -ترقيم الشاملة آليا-.
- الصحاح تاج اللغة وصحاح العربية، لأبي نصر إسماعيل بن حماد الجوهري. تحقيق: أحمد عبد الغفور عطار دار العلم للملايين، بيروت، ط4، 1407هـ -1987م.
- صحيح ابن حبان بترتيب ابن بلبان، لمحمد بن حبان بن أحمد بن حبان بن معاذ ابن مَعْبدَ التميمي، أبو حاتم الدارمي البُستي. تحقيق: شعيب الأرنؤوط، مؤسسة الرسالة، بيروت، ط2، 1414هـ – 1993م.
- صحيح البخاري، لمحمد بن إسماعيل أبو عبد الله البخاري الجعفي. تحقيق: محمد زهير بن ناصر الناصر، دار طوق النجاة، ط1، 1422هـ.
- الصناعتين الكتابة والشعر، لأبي هلال العسكري. تحقيق: علي محمد البجاوي، ومحمد أبو الفضل إبراهيم، المكتبة العصرية، صيدا بيروت،لاط،1406هـ- 1986م.
- الطراز لأسرار البلاغة وعلوم حقائق الإعجاز، ليحيى بن حمزة بن علي بن إبراهيم، الحسيني العلويّ. المكتبة العنصرية، بيروت، ط1، 1423هـ.
- علوم البلاغة (البيان والمعاني والبديع)، لأحمد بن مصطفى المراغي، دار الكتب المصرية، ط2، 1986م.
- العمدة في محاسن الشعر وآدابه، لأبي على الحسن بن رشيق القيرواني الأزدي. تحقيق: محمد محيي الدين عبد الحميد، دار الجيل، ط5، 1401هـ - 1981م.
- غرائب القرآن ورغائب الفرقان، لنظام الدين الحسن بن محمد بن حسين القمي النيسابوري. تحقيق: الشيخ زكريا عميرات، دار الكتب العلمية، بيروت، ط1، 1416هـ.
- فتح القدير، لمحمد بن علي بن محمد بن عبد الله الشوكاني اليمني. دار ابن كثير، ودار الكلم الطيب، دمشق، بيروت، ط1، 1414هـ.
- الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل، لأبي القاسم محمود بن عمرو بن أحمد، الزمخشري جار الله. دار الكتاب العربي، بيروت، ط3، 1407هـ.
- الكشف والبيان عن تفسير القرآن، لأحمد بن محمد بن إبراهيم الثعلبي. تحقيق: الإمام أبي محمد بن عاشور، مراجعة وتدقيق: الأستاذ نظير الساعدي، دار إحياء التراث العربي، بيروت، لبنان، ط1، 1422هـ - 2002م.
- اللباب في علوم الكتاب، لأبي حفص سراج الدين عمر بن علي بن عادل الحنبلي الدمشقي النعماني،

تحقيق: الشيخ عادل أحمد عبد الموجود، والشيخ علي محمد معوض. دار الكتب العلمية – بيروت، لبنان، ط1، 1419 هـ -1998م.

- لسان العرب، لمحمد بن مكرم بن على، أبو الفضل، جمال الدين ابن منظور الأنصاري الرويفعى الأفريقي. تحقيق: عبد الله علي الكبير، ومحمد أحمد حسب الله، وهاشم محمد الشاذلي، دار المعارف، القاهرة، لاط، لات.
- لطائف الإشارات (تفسير القشيري)، لعبد الكريم بن هوازن بن عبد الملك القشيري. تحقيق: إبراهيم البسيوني، الهيئة المصرية العامة للكتاب، مصر، ط3، لات.
- المباحث البيانية بين ابن الأثير والعلوي، لمحمد مصطفى رمضان صوفيَة. المنشأة الوطنية للنشر والتوزيع والإعلان، طرابلس، ليبيا، ط1، 1393و.ر -وفاة الرسول ﷺ- 1984م.
- معاني القرآن، لأبي زكريا يحيى بن زياد بن عبد الله بن منظور الديلمي الفراء. تحقيق: أحمد يوسف النجاتي، ومحمد علي النجار، وعبد الفتاح إسماعيل الشلبي، دار المصرية للتأليف والترجمة – مصر، ط1، لات.
- معاني القرآن وإعرابه، لإبراهيم بن السري بن سهل، أبو إسحاق الزجاج. تحقيق: عبد الجليل عبده شلبي، عالم الكتب، بيروت، ط1، 1408هـ - 1988م.
- معجم البلاغة العربية، لبدوي طبانة، منشورات كلية التربية، جامعة طرابلس ليبيا، ط1، 1395هـ – 1975م.
- المعجم الوسيط، مجمع اللغة العربية بالقاهرة، (إبراهيم مصطفى، وأحمد الزيات، وحامد عبد القادر، ومحمد النجار). دار الدعوة، لاط، لات.
- مفتاح العلوم، ليوسف بن أبي بكر بن محمد بن علي السكاكي الخوارزمي الحنفي أبو يعقوب. ضبطه وكتب هوامشه وعلق عليه: نعيم زرزور، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ط2، 1407هـ - 1987م.
- مفاتيح الغيب، (التفسير الكبير)، لأبي عبد الله محمد بن عمر بن الحسن بن الحسين التيمي الرازي الملقب بفخر الدين الرازي خطيب الري. دار إحياء التراث العربي، بيروت، ط3، 1420هـ.
- الهداية إلى بلوغ النهاية في علم معاني القرآن وتفسيره، وأحكامه، وجمل من فنون علومه، لأبي محمد مكي بن أبي طالب، القيسي القيرواني الأندلسي القرطبي. تحقيق: مجموعة رسائل جامعية بكلية الدراسات العليا والبحث العلمي- جامعة الشارقة، بإشراف: الشاهد البوشيخي، نشر: مجموعة بحوث الكتاب والسنة، كلية الشريعة والدراسات الإسلامية، جامعة الشارقة، ط1، 1429هـ - 2008م.

** المجلات العلمية الجامعية:

1. مجلة أعمال المؤتمر العلمي الأول لكلية الآداب، جامعة طرابلس، ليبيا، في الفترة من:16- 18/ مايو/2015م. الجزء الثاني، الصفحات من: (15-42)، بحث بعنوان: (المجاز فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿جِدَارًا يُرِيدُ أَنْ يَنْقَضَّ﴾ بين الإجازة والمنع)، لمحمد البحباح.
2. مجلة العلوم الإنسانية والتطبيقية، العدد (30)، شهر يونيو/2017م، كلية الآداب، الجامعة الأسمرية للعلوم الإسلامية، زليتن، الجزء الأول الخاص بالعلوم الإنسانية. الصفحات: من (332-350)، بحث بعنوان: (من رواد البلاغة العربية في ليبيا، ابن صُوفيَة وإسهاماته العلمية، لمحمد علي البحباح، الموقع الإلكتروني (ino@asmarya.edu.ly)).